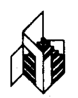
شم النسيم
أساطير وتاريخ وعادات وطقوس

عصام ستاتى



الهيئة العامة
لقصور الثقافة

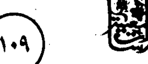
مكتبة
الدراسات الشعبية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

شم النسيم

عصام ستاتى

• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - ٢٠٠٦ م
١٦٠ ص - ١٣,٥ × ١٩,٥ سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• المراجعة اللغوية:
أسامة عبد الهادى
• رقم الإيداع: ٢٤١٢٠ / ٢٠٠٦
• الترقيم الدولى: 977-437-126-7
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: ١٦ أ شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدى ١١٥٦١
ت: ٧٩٤٧٨٩١ (داخلى: ١٨٠)
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: ٣٩٠٤٠٩٦



(١٠٩)

تعنى بنشر الدراسات المتعلقة بالفولكلور ونصوص وسير وحكايات وملامح الأدب الشعبي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى المؤلف وتوجهه فى المقام الأول.

www.calturepalaces.com.eg

شم النسيم
أساطير وتاريخ وعادات وطقوس

شم النسيم

أساطير وتاريخ وعادات وطقوس

المحتوى

المحتوى
المحتوى

يوم مصرى الهوية

يجمع المؤرخون على أن يوم شم النسيم عيد مصرى قديم. إنه يوم مصرى الهوية، مثله مثل يوم وفاء النيل؛ حيث كانت مصر الفلاحة التى هى هبة النيل تحتفل بعيد الفيضان الذى ضرب لهم المثل على الوفاء، فيلقون إليه بعروس من أجمل الفتيات؛ وهى قربان من أغرب القرابين، لكنه يفيض شعراً غنياً بالدلالة برغم قسوة الفعل فى حد ذاته: إلقاء فتاة فى النهر، دلالة الحدث اعتقاد المصريين فى ذكورة النيل، والذكورة رمز للخصوبة، فلولا أنه يلقح الأرض بطميه الخصيب ما أنتجت زرعاً. ولهذا فيوم وفاء النيل يوم مصرى الهوية مثل شم النسيم .

تنبع مصريته من ارتباطه العريق بالتقويم المصرى الذى هو إنجاز مصرى صرف، فغنىٌّ عن البيان أن المصريين هم أول من وضع تقويماً للزمن فقسمه إلى ثوان فدقائق فساعات فأيام فأسابيع فشهور فسنين والسنين إلى فصول، وقد وصفت الفصول بأحوالها المناخية، فهذا صيف وهذا شتاء وذاك ربيع وهاذاك خريف، وسميت الشهور المصرية بأسماء مستمدة من الطبيعة المناخية الخاصة بمصر، وهى طبيعة زراعية ترتبط فيها الأزمنة بالمنتجات الزراعية؛ حيث كل نبات ينتمى إلى مناخ معين، وإذا كان المصرى القديم - والحديث كذلك - يحتفل بأعياد الحصاد، فإن احتفاله بعيد الربيع من أقدم الاحتفالات. إنه البرزخ الذى يفصل بين مناخين مختلفين، ليس فى درجة الحرارة فحسب، بل فى ازدهار النبات واخضرار الشجر وانتعاش العاطفة .

ولكن منذ متى بدأ المصريون يحتفلون بيوم شم النسيم، وكيف أخذت عنهم بعض الشعوب هذا التقليد؟ ولماذا يحتفل به المصريون، وما علاقة شم النسيم بالآلهة المصرية القديمة؟ ولماذا ارتبط يومه بالأطعمة الحريفة كالفسيخ والبصل والبيض والخس والملانة؟.

كل هذه الأسئلة وغيرها يحاول هذا الكتاب أن يجيب عليها من خلال المصادر التاريخية المتعددة .

إنه كتاب تعريفى إن جاز التعبير، لايتفلسف، لا يدعى التحليل العلمى العميق، إنما هو يحاول تنظيم المعلومات

والظواهر والعادات والتقاليد؛ ليستخلص من كل ذلك شيئًا نراه مهمًا: ذلك النَّفَس - بفتح النون والفاء - المصرى الأصيل الذى يمتد فى الأجيال المصرية عبر الحقب والعصور. إنه سر من أسرار مصر الخالدة، أى أن هذا البحث البسيط - بمعنى ما - رحلة فى العادات والتقاليد والتاريخ الاجتماعى لمصر من قديم الأزل. أما الباحث عصام ستاتى فقد سبق أن نشرت له هذه المكتبة بحثًا مماثلاً عن آلة السمسمية الموسيقية المصرية، وهذا لون من الأبحاث المبدئية لا نمانع فى نشرها من حين لآخر ليستفيد بمادتها باحثون أكثر علمية فى التحقيق والتدقيق والتخصص والتحليل والربط والمقارنة .

وفى اعتقادنا أنك عزيزى القارئ ستجد فى هذا الكتاب متاعًا كنت تحب أن تلقاه، ونتعشم أن تكون قد أفدنا.

لكم التحية والتقدير و.. سلام عليكم .

خيرى شلبى

«من فات قديمه تاه»

مأثور شعبى مصرى

«حكيم من يستمع إلى قول الأسلاف الأولين»

تحتمس الثالث

مقدمة

شم النسيم.. الربيع.. النيروز.. الفصح.. عيد أدونيس.. رأس السنة البابلية.. كل هذه الأسماء وأسماء أخرى كثيرة تدل على شيء واحد و عيد واحد.

ولكن ما السر الذى جعل المصرى القديم ومن بعده البشرية يحتفلون بهذا العيد ؟! ولماذا احتفل المصرى – على مر التاريخ– بهذا اليوم ؟! ولماذا اختفت كثير من الاحتفالات المصرية القديمة مثل وفاء النيل ؟واندمجت أعياد أخرى فى نسيج الديانات السماوية مثل يوم عاشوراء وأصبحت أعيادًا دينية خالصة ؟ ومع ذلك بقى الاحتفال بشم النسيم دون صهره أو دمجه داخل المنظومة العقائدية !؟ ولماذا يرفض المصرى البسيط أن يقول المثقفون: «عيد الربيع» ؟ ولماذا ظل يقول: «شم النسيم» ؟ ولماذا أكل المصرى القديم الفسيخ والبيض والخس والملانة والبصل الأخضر ؟ ولماذا ظل يأكلها حتى الآن ؟!

هى أسئلة كثيرة تدور فى المخيلة كان لا بد لى من البحث فيها.. ومع البحث وجدت نفسى أمام هويتنا أو – كما ظننت – إعادة اكتشاف مصريتنا، فنحن شعب ذو حضارة زراعية استقرت حول النيل الخصيب وكانت نتيجة استقراره أنه لم

يسع إلى غزو أو احتلال الآخرين، بل كان دائمًا مطمعًا للغزاة، ومن أجل خصوبة هذه الأرض وخيراتها وعذوبة نيلها وطيب زرعها، نظر إليها العالم القديم بعيون متنمرة، ولكنها كانت تصهرهم فى بوتقتها، وكان من بعض نتائج ذلك أن احتفلوا معها وأخذوا عنها عيداً من أهم أعيادها وهو عيد الحصاد، وفصلاً من أهم فصولها هو فصل الحصاد الذى تنعم فيه مصر " سلة غلال العالم القديم " بمحاصيلها الوفيرة، فيسعد شعبها، وتعطى الفائض للشعوب المجاورة، وخاصة تلك الشعوب الصحراوية غير الزراعية، فلذلك احتفلوا مع المصريين بهذا العيد حتى ينالوا " من الحب جانبًا ".

ونحن نتناول هذا العيد المصرى العالمى ونقدمه فى إطار فكرة تقوم على التواصل بين المصريين القدماء وبسطاء المصريين المحدثين الذين حافظوا على موروثات هذا الوطن .

وكلما فكرنا فى عاداتنا وتقاليدنا التى يتمسكون بها، اكتشفنا مصريتنا.. فهيًا نكتب تاريخًا آخر لمصر غير تاريخ الملوك والسلاطين والحكام.. نكتب تاريخ المصريين الحقيقى والذى لا يتأتى إلا من خلال دراسة العادات والتقاليد والأساطير التى لا يملكها إلا هؤلاء البسطاء.. وربط ذلك بمصر على مر العصور.. فهذه هى فكرتنا القائمة على التواصل.. فهيًا نطبق هذه الفكرة على عيد الأعياد المصرية.. عيد كل المصريين.. قدماء ومحدثين.. مسيحيين ومسلمين.. صعايدة وبدو.. سواحلية وفلاحين .

نعم.. إنه عيد كل المصريين.. عيد شم النسيم.. فسلام على مصر إلى يوم الدين.. وسلام على حصادها .. وسلام على شم النسيم.

الفصل الأول
التعريف.. والاحتفال فى مصر القديمة

عيد شم النسيم الذى يحتفل به جميع المصريين منذ عصر قدماء المصريين وحتى الآن هو عيد قومى مصرى؛ لأنه ليس عيداً دينياً، بل عيداً من أعياد الطبيعة. و شم النسيم يسمى فى اللغة الهيروغليفية باسم شمو shemo، وهى تسمية تطلق على أحد فصول السنة المصرية القديمة، وبمرور الزمن تغير هذا الاسم من شمو إلى شم خاصة فى العصر القبطى، ثم أضيفت إليه كلمة النسيم فأصبح شم النسيم،وتعنى كلمة شمو فى الهيروغليفية فصل الحصاد، حيث قسم المصرى القديم السنة (رنبت)إلى ثلاثة فصول هى:

١ ـ أخت: فصل الفيضان.. ويبدأ من شهر يوليو إلى شهر أكتوبر .

٢ ـ برث: فصل بذر البذور.. ويبدأ فى نوفمبر.

٣ ـ شمو: فصل الحصاد.. ويبدأ فى مارس.

وتتكون السنة لدى قدماء المصريين من ١٢ شهر، والشهر (آبد) يتكون من ثلاثة ديكانات، والديكان عشرة أيام.. مضاف إليها خمسة أيام أو شهر صغير(كوجى آن آبد) عرفت بالأيام المنسية التى ولدت فيها الآلهة (أوزوريس، إيزيس، نفتيس، حوريس، ست) ثم أضافوا إليها يوماً سادساً كل أربع سنوات؛ حيث قدموه هدية

للمعبود تحوت الذى علمهم الحرف والكلمة والتقويم، حيث إن تقويم المصريين هو التقويم التحوتى الذى لا يزال متبعًا حتى الآن.

و شم النسيم هو الاحتفال بمجيء فصل الحصاد الذى تبعث فيه الحياة من جديد، وتتكاثر فيه الكائنات وتزدهر فيه الطبيعة، لذلك اعتبر المصرى القديم ذلك اليوم رأسًا للسنة المدنية، وكما جاء فى كتابه المقدس أنه أول الزمان، أو بدء خلق العالم، ويقع يوم شم النسيم فى الخامس والعشرين من شهر مارس (فارمنهات) الفرعونى، برمهات فى التقويم القبطى.

وقد اختار القدماء هذا اليوم؛ لأنهم تعودوا ربط أعيادهم بالظواهر الفلكية وعلاقتها بالطبيعة ومظاهر الحياة، فقد كان احتفالهم بعيد الربيع أو فصل الحصاد الذى حُدد ميعاده بالانقلاب الربيعى، وهو اليوم الذى يتساوى فيه الليل بالنهار وقت حلول الشمس فى برج الحمل،وكانوا يحددون ذلك اليوم والاحتفال بإعلانه فى ليلة الرؤية، أو لحظة الرؤية عند الهرم الأكبر الذى يصفونه بقولهم: «عندما يجلس الإله على عرشه فوق قمة الهرم» وهى تمام الساعة السادسة مساء ذلك اليوم؛ حيث يجتمع الناس فى احتفال رسمى أمام الواجهة الشمالية للهرم، فيظهر قرص الشمس قبل الغروب وخلال دقائق محدودة وكأنه يجلس فوق قمة الهرم، وتظهر معجزة الرؤية عندما يقسم ضوء الشمس وظلالها واجهة الهرم إلى شطرين (لغز الهرم الأكبر ؟!). وهنا يتبين مدى ارتباط هذا العيد بمعنى الشمس المشرقة من تلك النقطة المنفردة على الأفق وهى نقطة الاعتدال.

ظهور الشمس بهذه الهيئة إنما يربطها ربطًا معماريًا فيزيقيًا بهياكلها الأرضية وهى المبانى الهرمية، فالهرم هو بيت الشمس على الأرض، أو هو الكيان أو الصرح أو الهيكل المستور لظهورها وحلولها، فكيف يكون ذلك ؟ إن الآلهة عند القدماء لا تظهر بحقيقتها الشكلية أو تشخيصها البصرى، ولكن فى تجسيد وتوضيح لمفاهيمها الوظيفية المنوطة بها، ولا يمكن التعرف على المعبود عندهم إلا بشكل ناقص أو من خلال انعكاساته .

فعندما يتجلى أحد المعبودات مباشرة أمام عيون البشر فإنه يتخذ الشكل الذى يناسبه دون أن يعبر هذا الشكل عن هيئته الحقيقية، ويمتنع المشاهد - فى اعتقادهم - عن النظر إليه؛ لأنه يأخذ بصره ويشتعل ويلقى حتفه، والهرم أيضًا كهيكل للشمس لا نرى حقيقته - كما نراها - مادية حجرية، فإن له مضمونًا شفافًا روحياً فى عالم الخلود يستطيع من خلال شفافيته أن يتعامل مع شعاع الشمس المشرقة كمرادف للعقيدة الشمسية القديمة، فهو فى الأصل كريستالى المفهوم، إشعاعى المضمون، فإذا أشرقت الشمس من نقطة الاعتدال فى ذلك اليوم تكون عمودية على خط قاعدة الهرم وتظهر وتحل داخله كانعكاس لقرصها المتوهج الذى يحرم على عابديها النظر إليه فى عليائها ليصير حلولاً أرضيًا لشكلها السماوى وهبوطًا لمفهومها ومدلولها إلى مستوى عابديها، وإن كانت مستترة داخل هيكلها الحجرى المادى، وظهورها داخل الهرم يكون على صورة تجسيد مادى يأخذ شكلاً بيضاويًا كانعكاس منكسر للقرص المستدير القابع داخل هرمها الكريستالى .

إنه ظهور مادى خارج الهرم يخضع لقوانين الانكسار الضوئية الطبيعية، ولا يراه فى عقيدتهم إلا من يسمو بروحه وتشف حواسه فيلتقط أهداب شكلها الأرضى البيضاوى الذى تجسدت به، ولا ريب أن هذا الادعاء إنما كان لكبار الكهنة والمتبحرين، يتلمسونه لمن يلونهم ويتبعونهم من عوام الناس وجموع المؤمنين .

وهنا يكون هذا عيدها الذى تجسدت فيه و ولدت من داخل رحم المبنى الهرمى، وهبطت لتعلن عن انبثاق الأرض بعد طول ترقب وانتظار.

كما أن هناك مفهوماً معمارياً آخر يتكامل مع ما سبق من مضمون إشعاعى داخلى بالهيكل الهرمى، يتعامل مع الأهرام كعناصر نورانية مشعة، ولعلنا نجد أوصافًا لعديد من الأهرامات توحى بالمظهر الخارجى المشع بالضوء إلى محيط الهرم الخارجى، فنجد أن هرم سنفرو يلمع ويشع، ونرى روح ساحو رع تلمع من هرمه فى أبى صير، أما هرم منرَع بسقارة فله لَمَعَانٌ جميل، فما سر هذا اللمعان ؟ وما حقيقته ؟

لقد علمنا أن أوجه الأهرام كانت مغطاة بطبقة من الحجر الجيرى الأبيض الناصع الذى يجعل الهرم يبدو كدرَّة لامعة وسط رمال الصحراء، ولعل ما يؤكد هذا المنحى انبعاج الكساء الأبيض كمرآة مقعرة مائلة تعكس الأشعة الساقطة عليها بصورة مجمعة لتتلاقى فى بُعْدٍ بؤرى يقبع فى مدن السماء وبين مسارات السحب وزرقة الفضاء. إن خطوط التقاء هذه الأسطح الثلاثة إنما تكشف خريطة مصر المجردة بنيلها الجارى فى دلتاه المثلثة ومساره الخطى بواديه

الضيق .

لقد تحددت مصر كلها بين ضفتى واجهة الهرم مطبوعة على هيئة التاسوع المقدس فى صورة الأضلاع التسعة لتلك المثلثات؛ معلنة انتماء مصر القديمة إلى تلك العقيدة الشمسية، فإذا تعامد شعاع الشمس - خاصة فى وقت معين فى ذلك اليوم من عليائه على مسطح الواجهة الهرمية - لأصبح هذا الصرح العقائدى فى وضع مادى فريد يتيح له سموًا روحانيًا لتواصل قرص الشمس مع هذا الكيان الأرضى تواصلاً إشعاعيًا ذهابًا وإيابًا، أوثق صلة من خلال اتحاد مسارات الأشعة الصادرة من حدقة عين الشمس والمنعكسة على واجهة الهرم فى ذات الاتجاه نحوها الذى يتيح للنظر - فى ذلك اليوم قديماً - رؤية حزمة ضوئية قوية تستمر لحظات متبادلة الاتجاه بين الشمس فى سمائها وأهراماتها الأرضية، ومن خلال هذا التواصل تقدم مصر نفسها كقربان مقدس للشمس على مذبح الواجهة الهرمية كتصوير تجريدى مبسط لنيلها وأرضها، حيث يسقط شعاع الشمس على واجهة الهرم التى تحمل شكل خريطة مصر المجردة، ويرتد مشبعاً وقابضاً لقربانه الثمين، ليحفظه فى عينه وليباشره بشعاعه، ويكون المردود فى زعمهم جريان نيلها وكفاية خيراته. ثم يعقب ذلك أن يرد فرعون - الذى حل برع كذات واحدة - تلك الخيرات والمحاصيل إلى أهل مصر ثانية كعطية منه تظهر فى تلك الحقول الخضراء والأشجار المثمرة. إن هذا التواصل العقائدى يكون فيه الصرح الهرمى هو الوسيط والمعبد والمذبح لقربان عظيم تكون مصر كلها موضوع هذه التضحية .

ويقول جيمس هنرى برستيد حجة المصريات فى كتابه (فجر الضمير): ولعل أدق قطعة أدبية حفظت لنا فى متون الأهرام هى أنشودة الشمس التى نجد فيها الملك والمعبود الشمسى نفساً واحدة، وهذه الأنشودة تخاطب مصر بإسهاب، معددة لها المنافع التى تتمتع بها فى كنف حماية إله الشمس وسيادته؛ ومن ثم تقدم مصر لرع ثروتها ومحصولها، ولما كان فرعون يهب تلك المنافع لمصر، فهى من جانبها تقدم له نفس العطايا التى تقدمها لإله الشمس .

هذه هى ليلة الرؤية أو لحظة الرؤية وفلسفتها، وبعد هذه اللحظة يعود الناس من الهرم إلى منازلهم ويقومون بالاستعداد لتجهيز أدوات لعبهم وموائدهم للخروج قبل شروق الشمس يرتلون فى هذه الليلة دعواتهم وأمانيِّهم، فهو بالنسبة لهم ليلة القدر التى يستجيب فيها الإله دعاء من يرجو فيحقق دعواتهم. فكان الناس يستيقظون فى الصباح الباكر وقبل شروق الشمس، لأن من تشرق عليه الشمس قبل أن يستيقظ يصبح خمولاً وكسولاً طوال العام.

ويبدأ الناس يخرجون جماعات إلى الحدائق والحقول والمتنزهات، ليكونوا فى استقبال الشمس عند شروقها، وقد تعودوا أن يحملوا معهم طعامهم وشرابهم ويقضوا يومهم فى الاحتفال بالعيد ابتداء من شروق الشمس إلى غروبها، وكانوا يحملون معهم أدوات لعبهم ومعدات لهوهم وآلاتهم الموسيقية، فتتزين الفتيات بعقود الياسمين (زهر الربيع)، ويحمل الأطفال سعف النخيل المزين بالألوان والزهور، وتقام حفلات الرقص الزوجى والجماعى على أنغام الناى والمزمار والقيثارة ودقات الدفوف، تصاحبها الأغانى والأناشيد الخاصة

بالحصاد، كما تجرى المباريات الرياضية والحفلات التمثيلية .

كانت صفحة النيل تمتلئ بالقوارب التى تزينها الزهور وأغصان الأشجار المثمرة منقوشًا عليها كلمات الترحيب والتهنئة بعيد الحصاد (شمو) كان الاحتفال بالعيد يمتد بعد عودتهم إلى المدينة ليستمر حتى شروق الشمس، سواء فى المساكن حيث تقام حفلات الاستقبال وتبادل التهنئة، أو فى الأحياء والميادين والأماكن العامة حيث تقام حفلات الترفيه والندوات الشعبية، وكثيراً ما كان المنشد يغنى مهنئا بالعيد فيقول:

احتفل بهذا اليوم السعيد

واستنشق روائح العطور والزيوت

و ضع أكاليل من زهور اللوتس على ساق أختك وصدرها

تلك المقيمة فى قلبك والجالسة بجوارك

ولتصدح الموسيقى بالعزف والمنشدون بالغناء

ولا تهتم بشىء

اغتنم فرص المرح والسرور

قبل أن يجىء اليوم الذى تقترب فيه من الأرض التى تألف السكون.

وكانت الزهور والخضرة بشيراً ببدء موسم الحصاد، ففيه يملأون المخازن والشونات (شونى) بالغلال ويقيمون حفلاً آخر بهذه المناسبة يقدمون فيه بواكير الخلق الجديد من سنابل القمح الخضراء ويضفرونها على شكل علامة (حتب) الهيروغليفية كرمز للخير والسلام، ويُهدونها الإله الذى أنعم عليهم بهذا المحصول الوفير والخير العظيم.

وبعد:

فقد ظل شم النسيم عيداً للطبيعة والحصاد، قائماً من عهد المصريين القدماء وحتى اليوم، ولم تقض عليه الأديان التى اعتنقها المصريون، من مسيحية وإسلام، بل أصبح حتى اليوم عيداً قومياً يحتفل به المصريون على اختلاف أديانهم، فيخرجون كما اعتاد أجدادهم إلى الحقول والحدائق يلهون ويمرحون ويأكلون البيض والفسيخ والبصل الأخضر والخس والملانة، ويركبون القوارب على صفحة النيل، إنه العيد الذى أوحت به طبيعة بلدنا الزراعية.. إنه عيد الزراعة.. عيد بعث الحياة.. عيد أول الزمان الذى انتقل عبر العصور الطويلة ليحتفل به العالم كله فى حضارته القديمة وعصوره الحديثة، ليصبح عيداً مصرياً عالمياً .

وقد اختلف المؤرخون فى معرفة متى بدأت مصر الاحتفال بهذا العيد، فيرى كثير من الباحثين - ومنهم برستيد - أن الاحتفال قديم ويرجع إلى عصر ما قبل الأسرات وقبل بناء الأهرامات بقرون طويلة، وأما بلوتارخ - أحد المؤرخين الكبار - فيرى أن تاريخ شم النسيم يعود إلى ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد، أما أغلب الباحثين فيرون أن الاحتفال بدأ رسمياً اعتباراً من عام ٢٧٠٠ ق م أى مع نهاية الأسرة الثالثة وبداية الرابعة، وإن كان معروفاً قبل ذلك، وأنه انتقل إلى حضارات العالم القديم عن طريق مصر .

وفى الحقيقة أن هذا العيد بدأ عيداً شعبياً يحتفل به المزارعون مع بداية فصل الحصاد واستمر كذلك حتى احتفل به رسمياً فى نهاية الأسرة الثالثة وبداية الأسرة الرابعة. ولكن البداية الرسمية

لعيد من الأعياد الشعبية لا تعنى أنه لم يكن موجوداً قبل هذه البداية، فعندما نقوم بجمع بعض النصوص الشفاهية وندونها فى كتاب، فإن تاريخ النصوص لا يرجع إلى تاريخ طبع الكتاب؛ لأنها موجودة على ألسنة أصحابها قبل الكتاب بكثير، فهذا العيد موجود مع وجود الزراعة المصرية نفسها؛ لأنه هو التميمة التى تحفظ حصادهم الذى هو كل شىء فى المجتمع الزراعى، لذا فقد أعطوا أهمية كبيرة لمسألة ربط هذا العيد بالآلهة.

الفصل الثانى

شم النسيم والآلهة فى مصر القديمة

لعبت الآلهة فى مصر القديمة - أقدم مجتمع زراعى عرفته البشرية - دور الحياة نفسها، فشبهوا النبات بإله يموت كل سنة ثم يقوم من بين الأموات، فيقيمون له المراسيم والاحتفالات لعودته التى تأتى مع نمو المحاصيل فى فصل الحصاد. وكان يمثل هذا الإله فى صورة تمثيلية درامية يلعبها الكهنة أنفسهم ويشارك فيها الفرعون الممثل الأرضى لهذه الآلهة.. كما شبهوا هذا الإله بطائر يعيش عدة قرون ثم يقوم بحرق نفسه ويعود طائرًا شابًا جميلاً - العنقاء - ومثلوه أيضًا بإلهة تريد أن تفتك بالبشر ثم تُمنع عن فعلها بواسطة إله أكبر، ومن بكاء بقية الآلهة تينع الأرض بالخضرة، فيخرج الناس احتفالاً ببقائهم ومنحهم المحاصيل وحفاظًا على أولادهم .

إن تعاملهم مع الآلهة كان فى الأساس للاستعانة بهم، ومساعدتهم أحيانًا من أجل الحفاظ على الطعام والأولاد، وخاصة فى المجتمعات الزراعية المستقرة مثل المجتمع المصرى القديم، وكان الاحتفال يتمثل فى عيد الحصاد وتشوين المخازن بالغلال والحبوب والشعور بالأمن والاستقرار. وأكثر ثلاثة آلهة لعبت هذا الدور فى مصر القديمة هى: أوزوريس وحتحور وفينكس الجديد، وسنتعرف

على دور كل واحد من هؤلاء الآلهة فى إطار ربط أسطورته - أسطورة الخلق - بيوم بدء الخلق، وأول الزمان بيوم الحصاد.

(١) أوزوريس

الواقع أن أوزوريس يختلف عن الأغلبية الساحقة من آلهة المصريين، فالأسطورة المنسوجة عبر الزمان عن أوزوريس، وإيزيس، وحوريس، غنية بالمشاعر الإنسانية، قريبة إلى وجدان البشر. لقد كان أوزوريس ملكًا علَّم الناس الزراعة وفتح لهم طريقًا للتقدم، واصطدم به أخوه ست الذى يرمز إلى الشر والتصحر والجدب، وانتهى هذا الصراع بموت أوزوريس غرقًا لتبدأ رحلة الآلام بحثًا عن جسده، وقامت بهذه المهمة الصعبة أخته وزوجته إيزيس التى لم تسلم من محاولات ست لسرقة الجسد وتمزيقه، ثم تبدأ رحلة البحث مرة أخرى عن الأجزاء المبعثرة، وأخيرًا يتسلم حوريس زمام المعركة فى صراعه ضد ست انتقامًا لأبيه.

إن هذه الأسطورة تعود إلى فجر التاريخ المصرى، واستمرت حتى نهاية المرحلة القديمة، بل عاشت - بصورة أو بأخرى - حتى عصر البطالمة والرومان، ثم أخذت صورًا شعبية متعددة كان آخرها حسن ونعيمة التى ظلت تبحث عن جثة حسن المغنواتى.. ويمكن أن نستشف اللمحات الأولى لهذه الأسطورة من قراءة متون الأهرام، أقدم الكتابات المصرية المسجلة على جدران أهرامات ملوك الأسرة الخامسة والسادسة.

وقد ارتبط الحج المصرى القديم بالإله أوزوريس، حيث كان المصريون يحجون إلى أبيدوس بيت الإله أوزوريس فى سوهاج وهو

الذى سيبعث منه، فكان البشر يذهبون إلى هذا المكان للتعجل ببعث أوزوريس الرمز (الزرع)، وفى الحقيقة أن كثيرًا من الباحثين الذين قاموا بتفسير الأسطورة فسروها من جانب أحادى هو جانب الصراع بين الخير والشر، ولكن قصة الخلق المصرية هى فى الحقيقة قصة رمزية، فأوزوريس ما هو إلا خيرات مصر وزراعتها من نباتات ومحاصيل وبقية الكائنات، وإن موته يعنى الفناء، والجدب والتصحر (ست)، فالقصة قصة للصراع بين النماء والفناء، فالإضرار بالزرع أو فقده فى مجتمع زراعى يعنى الفناء، أما إيزيس فهى أرض مصر نفسها التى تسعى دائمًا - فى محاولات جادة - لإنقاذ زراعتها من التصحر والجدب من أجل توفير الطعام لأبنائها، فمصر تزوجت الزراعة وعاشت كمجتمع مستقر، ولا بد أن تحافظ على زراعتها، ولا بد أن تكون عقيدتها الدينية مبنية على أساس زراعى .

أما حوريس، فما هو إلا فرعون مصر المحافظ والمدافع عن إرثه الشرعى؛ لأنه ابن الآلهة ومنفذ لأحكامهم من أجل إسعاد بنى أمته فى منحهم الزراعة وتوفير المحاصيل لهم، ولهذا لم يكن مستغربًا أن يحتفل الفرعون وكبار القوم فى هذه التمثيلية - تمثيلية الخلق - ويشارك فى الاحتفال بعيد الحصاد، وإن ركوب القوارب الخفيفة فى هذا اليوم رمز حماية للحصاد من أخطار الجدب المتمثلة فى (ست)، وكأن لسان حال الشعب يقول لإلهه ولفرعون: ها نحن نحمى مصر وزراعتها ومحاصيلها، فى شكل احتفالى مرح، وإن كانت أشعار الاحتفال باكية تشبه الندب، وكأنها تعاويذ سحرية لحماية الزرع فى

صورة غناء بعودة أوزوريس وبعثه من جديد فى صورته الرمزية وهى الزراعة.

ومن بعض النماذج الغنائية لهذا الاحتفال، نماذج من أشعار الدراما الأوزيرية : ـ

أيها الشاب الجميل عد إلى بيتك
من زمن طويل لم نرك
عد إلى بيتك . . لقد هجرتنا
يا من تعيش فينا . . لقد هجرتنا
أيها الشاب الجميل . . يا من رحلت قبل الميعاد
فى مقتبل العمر . . قبل زمانك
أنت ماء سرى جاء من آتوم
يا سيد . . يقدسونك أكثر من آبائك
أيها البكر فى رحم أمك
آه لو تأتى إلينا فى صورتك السابقة
فنحتضنك ولا تهجرنا
يا جميل المحيا يا صاحب الحب الكبير
يا صورة بتاح يا سيد المشاعر
والأحاسيس البكر . . فاتح الرحم
يا صاحب الجسد المجهد عندما ضمدوه
تعال فى سلام يا أمير حتى نراك
وتحتضن الأختان جسدك الخالى من الأذى
كأن الشر لم يكن

أنت رأسنا . . عد إلينا
النواح الشديد بين الآلهة
فهم لا يعرفون الطريق الذى سلكت
أيها الصغير ذهبت فى غير ميعادك
هل ستدور حول السماء والأرض فى صورتك القديمة
أنت نور الأختين
تعال أيها الطفل فى سلام
يا إلهنا حتى نراك

* * *

عد إلى بيتك
أنت ممجد ممجد
ليشع علينا وجهك بالفرح
تعال إلىّ
اليوم هناك ظل على الأرض
سقطت السماء على الأرض
هيا تعال معى
الرجال والنساء فى المدينة يبحثون عن سيدنا
من كانوا أيام سيدنا
الإله لا بد أن يعود إلى مكانه
تشمم الريح بأنفك
لقد ذهب السيد إلى مكانه
هيا يا رع ألق عليه التحية

شرك سيرتد إليك يا صانع الشر
هيا ياسيد الحب
تعال إلىّ يا سيدى اليوم حتى أراك
أخى تعال حتى نراك
ذراعاى ممدودتان.. أحييك
ذراعاى مرفوعتان.. أحميك
أمشى فى الطرقات.. فحبك جاء إلى
أخطو على الأرض.. لا أتعب من البحث عنك
النار داخلى من أجل حبى لك
تعال هنا حتى أراك
ابك فأنت وحيد
تعال إلىّ سريعًا.. رغبتى أن أراك
أرى وجهك
الفرح فى معبدك
أنت فى حماية.. أنت فى حماية

* * *

يبدو من النصوص السابقة أنها ابتهالات وتعاويذ من أجل الإسراع بقدوم فصل الحصاد حتى تستطيع مصر أن تحصد ثمار خيراتها، ولإبعاد الجدب عنها، وأن هذا الاعتقاد جاء للقدماء المصريين من إحساسهم بأن النيل هو سر بقائهم، ولذلك قُدس النيل وقُدس الزرع متمثلاً فى الإله أوزوريس، وظل الماء والزرع لب الثقافة المصرية، فهى ثقافة شمسية زراعية لم يطرأ عليها تغيير

واضح إلا مع بداية الدولة العصرية وزحف المبانى والمصانع على الأرض الزراعية، بالإضافة إلى الطفرة السكانية التى جعلت المصرى - ولأول مرة فى تاريخه - فى سبعينيات القرن الماضى، يترك أرضه من أجل السفر والعمل بالخارج وخاصة فى الدول النفطية التى لم تكن تتطلب أية خبرة من أى نوع سوى الصحة البدنية من أجل عمل شاق ومجهد.

نعم تركنا الأرض الزراعية التى هى أساس فلسفة وحياة المصريين، واليوم تعود الدعوة إلى إصلاح الصحراء، ولا أعرف أية صحراء تلك التى ستعوضنا عن الأراضى الخصبة، لقد كان القدماء يخشون مجرد تعرض المحاصيل للإتلاف أو الضرر، فربطوا عقيدتهم بالأرض وما عليها من زرع، وتعاملوا معه على أنه إله يموت ويبعث من جديد، ويثمر ويعاود إثماره على مصر بالخير، وظل المصرى مع وجود العقائد السماوية يعيش بهذا المفهوم، ونراه يقول فى أغانيه الشعبية:

«الأرض زىّ العرض»

«وغلاوة الطين من غلاوة الولد»

وأيضًا فى أمثاله (أبيع أرضى وأقعد عريان ؟) وكأن الأرض غطاء يدفئه ويحميه من المخاطر، فالأرض هى الرزق وهى القوت (يا واخد قوتى.. يا ناوى على موتى)، وهى الحماية، ولا تحب حتى المشاركة (قيراط ملك ولا فدان شرك).

ولكل هذه الأسباب احتفل المصرى بعيده الزراعى (شم النسيم) عيد الحصاد، ولكن مع غياب فلسفته بقى الاحتفال واختفى المعتقد

والسر وراء الاحتفال، والمصرى القديم أدرك فلسفة الزراعة واهتم بها لدرجة التقديس وأصبح طوال شهر (كيهك) يحتفل بعودة البعث الأوزيرى تمهيدًا لمجيئه الحقيقى فى(فرمنهات أو برمهات) ليجنى ثمار محصوله.. فمن زرع حصد.

(٢) حتحور

ربما يستغرب الكثير إذا عرفوا أن خروج المصريين فى ذلك اليوم فى الفجر أو الصباح المبكر قبل ظهور الشمس إلى الحدائق والحقول والبساتين ما هو إلا رمز لأولئك الذين حملوا أوانى الجعة ليسكبوها فى طريق حتحور قبل أن تفتك بالبشر. فكيف ذلك ؟

هناك أسطورة مصرية قديمة تقول: إن (رع) سخط على المصريين لعدم إطاعتهم إياه، واستدعى الآلهة ليدمروا البشر، ولكنهم خافوا جميعًا فيما عدا حتحور التى قبلت أن تفتك بالناس، وعندما ظهر قارب الشمس عند الغروب، ركبته ثم نزلت بالنهار ومشت بين الناس لترى خطاياهم وتشتعل كراهية لهم، ولكن رع استدرك، فأمر الآلهة بجمع كميات من الشعير وطحنها، وكانت دموعهن فى دقيق الشعير، فتخمر وتحول إلى جعة، وأخذ الإله رع هذه الخمر وألقى بها فى طريق حتحور، فشربت منها وسكرت، كما شربت منها الأرض فأينعت وازدهرت، واطمئن البشر وفرحوا بميلاد الخضرة والنباتات وراحوا يشمون أريج الأرض ونسيمها، واستمرت حتحور فى ذهن الثقافة الشعبية المصرية تحت اسم (الشمامة) والتى ينتظرها الناس بقلق مصحوب بشوق فياض إلى زيارتهم ليلاً قبل بزوغ الشمس يوم الاثنين الموافق لشم النسيم،

فعادة يبدأ الاستعداد قبل زيارة الشمامة بشهر، من تنظيف شامل للبيت وبخاصة بياض الحمامات والمطابخ وفرز كل ما فى الدواليب وإعادة ترتيبها.

ثم يبدأ العد التنازلى فى الأسبوع الأخير والاهتمام بالتفاصيل الدقيقة؛ كشراء ملابس النوم البيضاء ومفارش الأسرَّة البيضاء والشباشب البيضاء، وحين يحل اليوم الأخير - يوم الأحد - تأتى البلاّنة للقيام بعملية الغسيل البدنى لجميع أفراد الأسرة الإناث، حتى الشغالات، وكذلك الذكور الذين هم دون العاشرة، أما الذكور الأكبر من هذا سنًا فيقومون بهذه العملية بأنفسهم، أو يذهبون لحمامات البخار؛ وخاصة فى المدن، وتستخدم البلاَّنة كيسًا أسود خشن الملمس ينظف الجسم ويفتح جميع مسامه لتُخرج منه كل ما تراكم من الأتربة على مدار العام، وبالفعل تخرج من الجسم فتائل سوداء صغيرة يتعجب الأطفال منها ويسألون من أين أتت وهم يغسلون أبدانهم كل يوم. و فى نهاية الحمام، تُلبِس الأطفال ملابسهم البيضاء وتحملهم إلى الأسِرة كيلا تلمس أرجلهم الأرض، فيجدون صحبة من البصل الأخضر معلقة على الحائط فوق السرير، فينامون فى شوق إلى زيارة الشمامة، ويشعرون بالاطمئنان لأنهم قاموا بعملية التنظيف الشامل بعناية، ولأن حكمها بالرضا عنهم سيجعلهم فى عِداد النِّظاف طول العام المقبل، وفى يوم الاثنين توقظ الأم أطفالها والبصل الأخضر فى يدها تقربه إلى أنوفهم إعلاناً ببدء يوم شم النسيم، وتبدأ الأسرة تعد العدة للخروج إلى الحدائق، وتفرش المفارش البيضاء التى تغطى بها الأسبتة على الأرض،

ويقضون اليوم فى فرح حتى يعودوا إلى منازلهم سالمين .

حتحور لم تكن مهلكة للبشر، بل كانت فى الحقيقة إلهة الجمال والموسيقى والحب ورعاية الأطفال وتقديس الأمومة، فهى- كما تحكى الأساطير- الساهرة دائمًا على إسعاد البشر وهديهم إلى طريق الخلود، و هى التى تألمت عندما تركت إيزيس ابنها حورس كى تبحث عن زوجها أوزوريس الذى قتله أخوه ست وقطعه إلى أربع عشرة قطعة. فحولت حتحور نفسها إلى بقرة وأرضعت حورس كى لا يموت جوعًا إلى أن عادت إليه إيزيس. ونحن نجد أن يوم شم النسيم ارتبط بهذه الإلهة التى لو نفذت أوامر رع لهلك البشر ولكن بسبب تراجع رع أينعت الأرض، فالناس يخشون فتكها ليلاً، فيطهرون أنفسهم جيداً حتى ترضى عنهم، ويخرجون إلى استقبالها فى الصباح الباكر. وهنا يظهر كيف استخدم المصرى ميكانيزم دفاعيًا هو: الإزاحة والإبدال، فلم يكن المصرى يستطيع أن يدخل حتحور بشكلها واسمها داخل العقائد السماوية التى اعتنقها، فقام بإزاحة الاسم والشكل وأبدلها بالشمامة، وفى الحقيقة أن الناس لا يغسلون مجرد أجسادهم، بل يغسلون ذنوبهم، فالتطهير تطهير أخلاقى وليس مجرد تطهير جسدى، فالماء فى المعتقد الإنسانى عبر الحضارات هو وسيلة التطهير الأولى، حتى داخل العقائد السماوية مثل التعميد فى المسيحية والوضوء فى الإسلام قبل كل صلاة، فهى طهارة للجسد والنفس والروح، واغتسال من الذنوب.

وهنا يتبين أنه كما عاشت حتحور - بصورة أو بأخرى فى تاريخ مصر الطويل عبر عصوره المختلفة - فقد عاش أوزوريس، الذى

نراه فى صورة حسن المغنواتى، فالتواصل عقيدة مصرية لها عدة أشكال، إما أن تظهر وتستمر كما هى، أو تأخذ أشكالاً أخرى بعد أن تقوم بدمج وصهر الآخر فيها، فهل يتصور أحد أن تعيش حتحور وأوزوريس وبقية آلهة مصر القديمة فينا ومعنا حتى الآن!؟، ولكن الذى لا يظهر المسألة بوضوح جلى هو التعليم، فالمتعلم المصرى هو أول من يتغنى بقيم أجنبية، وهى ظاهرة غريبة حقًا، فنجد أن (مانيتون السمنودى) كبير كهنة هليوبوليس، وكان – تبعًا لذلك – فى طليعة أساتذة معهدها العلمى، قد وضع تاريخه الذى سجل فيه أسماء الفراعنة المصريين من عهد مينا إلى عهد الفاتح الفارسى الأخير، على يد (أجرزسيس الثالث) فى نحو عام ٣٤٣ ق م باللغة اليونانية.

وكذلك نجد (ساويرس بن المقفع) أسقف الأشمونيين قد كتب تاريخ البطاركة باللغة العربية إبّان القرن العاشر الميلادى؛ أى الرابع الهجرى، نفس قرن الشاعر الفردوسى صاحب الشاهنامة الذى كتبها بالفارسية، وهى ظاهرة تجدها الآن- و فى أبسط صورها- عندما تشاهد التليفزيون، و ترى حواراً مع أحد التكنوقراط، وتجده يستخدم ألفاظًا أجنبية أكثر من استخدامه للغته التى يتحدث بها، فى حين يستخدم المواطن المصرى البسيط ألفاظًا وكلمات مصرية قديمة حتى الآن، بل إن هذه الكلمات هى محور حياته اليومية، وتعيش معه وتشكل وجدانه، وسوف ترد بعض هذه الكلمات لاحقًا، بل إن المصرى لا يكتفى بهذه الكلمات، فلغته التى يتحدث بها فى الحقيقة ذات تركيبات وقواعد مصرية قديمة نسجها بكلمات عربية .

فـإذا كـانت اللغـة المصـرية القـديمـة تعـيش فى وجـدان المواطن البسيط حتى اليوم، فكيف لا تعيش بداخله حتحور و رع وأوزوريس وفينكس وغيرهم، وتستـمر معـه الاحتفالات القـديمة كافـة، وعلى رأسـهـا احـتـفـاله بالحـصـاد المعروف بشم النسـيم، بنفس الاسم والشكل والعادات والتقاليد ؟.

(٣) فينكس الجديد وميلاده

هو من بقايا عبادة إله الشمس " رع " وكان الاحتفال به يقام فى يوم شـمـو أو شم النسـيم، بالمطرية (هليـوبوليس القـديمـة أو مـدينة الشـمس)، فـقـد كـان الناس يذهبـون ليلة الرؤية إلى المسلة المقـامـة هناك، ليـروا تسـاوى سـاعـات الليل والنهـار، وينامـون بعـد ظهـور الرؤية فى الحقول المجاورة ليروا لحظة شروق الشمس.

وفينكس هذا طائر خرافى (العنقاء)، زعم المصريون القدماء أنه يعمر خمسة أو ستة قرون، وبعدها يحرق نفسه لينبعث من رمـاده طائر جميل وشاب، وهو رمز شروق الشمس وغروبها، ولكن الغريب أن هذا الطقس- رغم دخول الأديان السماوية- ظل قائمًا حتى الربع الأول من القرن العشرين، يمـارسه مسلمون ومسـيحـيون، حيث يذهبـون إلى المسلة وينامـون فى الحـقـول المجـاورة حـتى شـروق الشمس، ليستقبلوها حاملين فى ذاكرتهم ميراث الأجداد .

وهنا يمكن تفـسـير التـاريخ المصرى القـديم من خـلال الصـور الشعبية التى نعيشها ونمارسها فى أشكال حياتنا اليومية كافة، لأن الفلكلور هـو المرآة العاكسة لقراءة التاريخ، فنرى المصرى البسيط الذى يمـارس هذه الطقـوس لا يثق فى المتـعلم الذى يسـتنكر هذه

الطقوس ويتعامل معها باستعلاء ويطلق عليه الأفندى:

عينى علينا احنا غلابة
من غير قراية ولا كتابة
باعونا الأفنديات
وسابونا من غير علام
من غير بصارة، من غير إمام
وكلتنا الأفنديات كلتنا
شربتنا عرق وسابتنا
خضر سنينها شقانا
يا دوبك طُلْنا غدانا
عرايا واقدامنا حافية
وباعونا الأفنديات
ياريس السفينه
يا دايس ع المدينة
ورينا إيه اللى لينا
وخد نن عنينا
وسيب صدر الخلايق
يفضفض بالمضايق
ما راح العمر راح
واشتقنا للبراح
وباعونا الأفنديات
يا عينى !!

فهذا هو موقف المصرى البسيط؛ لأن الأفندى يمثل تاريخ القهر بالنسبة له، فهو الإقطاعى، والضابط، والنيابة، والقاضى، وجامع الضرائب، هو كل رموز القهر، فكيف يثق فيه، فإذا حدثه عن تنظيم الأسرة يزيد من الإنجاب، ويمشى عكس ما ينصح له تمامًا، ولذلك تأتى الأبحاث الميدانية على غير الواقع، فإذا قدمنا استبيانًا عن رأى الفلاح فى تنظيم الأسرة مثلاً، سيكون على الورق مع التنظيم، بينما الواقع عكس ذلك تمامًا. وهذا ما نشاهده كل عام مع عيد شم النسيم، فنرى وسائل الإعلام المختلفة تحذر من أكل الفسيخ، وتتكلم عن حالات التسمم، ومع ذلك يزيد الإقبال على الفسيخ عامًا بعد آخر، فالحقيقة أننا أمام ثقافتين، ثقافة مصرية يعتنقها البسطاء، وثقافة غير مصرية يعتنقها غير البسطاء، و هم من يُعرِّفهم البسطاء بالأفندية.

الفصل الثالث
مائدة طعام شمّ النسيم

كان لقدماء المصريين وما زال، مائدة طعام خاصة بهذا اليوم، وتعد هذه المائدة جزءًا رئيسًا للاحتفال، وتتكون هذه المائدة من خمسة أطعمة، هى البيض والفسيخ والبصل الأخضر والخس والحمص والملانة. هذه المائدة التى انتقل بعضها إلى شعوب العالم، واعتبروها جزءًا لا يتجزأ من طقوس هذا العيد، لم تكن من باب الترفيه، بل كان لها جذور مقدسة مرتبطة بالعقائد المصرية القديمة.

وهذه الأطعمة الخمسة التى ترتبط بخماسية الكف وأصابع اليد، تسمى بالخماسية المقدسة؛ لأن الكف لدى المصريين القدماء يرمز إلى العطاء الإلهى، ولكل طعام من هذه الأطعمة فلسفته الحياتية المرتبطة بالمجتمع الزراعى، و سوف نتناول بالتفصيل كل طعام منها، إضافة إلى بعض الأطعمة والكماليات المرتبطة بهذا اليوم.

البيض:

البيض فى اللغة الهيروغليفية يسمى (سوحت (swhet و فى القبطية يسمى (سوحى (sohi أو سويحة وفى العربية بمعنى دحى ومفرده دحية، وكان بيض النعام ذا قيمة كبيرة وجزءًا من الجزية التى تقدمها الشعوب المغلوبة إلى مصر، واستعمل فى بعض أغراض الزينة، وقد اعتاد أقباط مصر من المسيحيين على أن يعلقوا

البيض فى كنائسهم فى الوقت الحالى أمام حامل الأيقونات، إذ إنه يعد رمزًا لعناية الإله بأولاده واهتمامه بهم، كما أنه يرمز إلى الانتباه، فيقف الناس خاشعين عند أداء الطقوس.

وقد استعمل البيض للأكل منذ العصر الحجرى الحديث، حيث شوهدت سلات البيض بين القرابين التى كانت تقدم للموتى، فقد عثر فى جبانة الجيزة فى حفائر الجامعة على أوانٍ وجرارٍ من الفخار ملأى بالبيض المختلف الأشكال، وتدل أوانيه على أنه من عهد الأسرة الثامنة عشرة، ولكن للآن لم يتم التحقق من أنوا ع هذا البيض .

والبيض يرمز فى العقيدة المصرية القديمة إلى خلق الحياة. فقد ورد فى برديات أون ومنف أن الإله خلق الأرض من صلصال شكله على هيئة بيضة، ثم نفخ فيها من روحه، فانفجرت الحياة داخلها، فخرج النبات وتفجر من سطحها الماء، ومن أجنة الكائنات تكاثرت الحياة فوق سطح الأرض، ولذلك كانوا يقدمونه كقربان للموتى- كما ورد بكتاب الموتى- لبعث هذا الميت من جديد، فالبيضة هى رمز لخلق الحياة من العدم لدى القدماء، وقد ظهر هذا واضحًا فى نشيد أخناتون :

الله وحده لا شريك له
خلق الحياة من الجماد
فأخرج الفرخ من البيضة

لحظة الخروج هذه هى لحظة الرؤية، لأن البيضة مرتبطة أيضًا بالشمس. فالروايات تتحدث عن أن البيضة انبثقت منها الشمس،

وأنها قد ظهرت إما فى أعماق المحيط الأزلى، وإما أنها قد سقطت من السماء. كما نسب إلى بتاح أنه خالق البيضة الخاصة بالشمس فكانت البيضة هى رمز الشمس المتجددة، ورمز انبثاق الحياة لها. ناهيك عن مفهوم بيضة الطعام، وعن سر الحياة القابع بداخلها من خلال كرة المُح المشابهة لكرة الشمس الصفراء، والتى يخرج منها مخلوق حى، يسعى بعد موت ورقود، ولهذا السبب فإن البيضة هى رمز ذلك اليوم، ففى شكلها تجسدت الشمس، وعلى مضمونها بنيت العقيدة القائمة على فكرة انبثاق الخلق وعودة الحياة.

أما فكرة نقش البيض وزخرفته؛ فقد ارتبطت بعقيدة قديمة أيضًا وهى اعتبارهم أن ليلة العيد بمثابة ليلة القدر. فكانوا ينقشون على البيض الدعوات والأمنيات ويجمعونه فى سلال من سعف النخيل الأخضر، ويتركونها فى شرفات المنازل ونوافذها، أو يعلقونها فى أشجار الحدائق حتى تتلقى بركات نور الإله عند شروقه فيحقق دعواتهم، ويبدأون العيد بتبادل التحية (بدقة البيض) والذى لم تكسر بيضته تتحقق أمنياته، و هى من العادات التى ما زالت حتى الآن، ويقوم بعض الظرفاء بأخذ بيضة من حجر مخروطى كخرط البيض، ويصبغها بنفس الألوان، وكانت قديمًا لا تصبغ بل تخرط من حجر جيرى أبيض، ومن هذه اللعبة جاءت المقولة الشعبية (فلان يلعب بالبيضة والحجر) و هى كناية عن الغشاش القادر على إخفاء غشه بحيلة، فهو يلعب بحجر مكان البيضة، ويقنع الآخرين بأنها بيضة، بل إن كلمة (سوحت) بالهيروغليفية بمعنى بيضة، من الكلمات التى انتقلت إلى عدة لغات ومنها العربية، ولكن لم تنتقل

بمعنى بيضة، ولكن بمعنى حرام (سحت) وحُرِّفت إلى دحية بمعنى بيضة، وهذا؛ لأن الشخص كان يضرب- بحجر يشبه البيضة- بيضة الآخر فتُكْسر ويأخذها ويأكلها. فالمعنى أن فلانًا يأكل بيضة ليست من حقه (بياكل أونطة أو سفلقة) فى المعنى الشعبى، و فى العربى يأكل من حرام ؟

المهم أن قدماء المصريين - بعد تبادل التحية بدقة البيض - كانوا يأكلونه، وقد انتقلت عادة الاحتفال بعيد الحصاد و تقاليد أكل البيض إلى آسيا الصغرى وفلسطين قبل أن ينقلها إليهم اليهود فى احتفالهم بعيد الفصح وذلك مع فتوحات تحتمس الثالث عام ١٤٥٠ ق.م عندما تصادف حلول العيد أثناء وجوده مع جنود فلسطين وانتصاره فى معركة (مجدو) المشهورة، كما ورد بالوثائق القديمة التى وجدت بفلسطين ما يشير إلى أن جنود رمسيس الثانى احتفلوا بعيدهم المقدس الذى شاركهم فيه أهل البلاد عام١٢٥٠ ق.م، وكان يعتبر من بين أعيادهم الشعبية التى انتقلت إليهم مع فتوحات تحتمس الثالث. أما عادة تلوين البيض باللون الأحمر فقد بدأت فى فلسطين بعد صلب المسيح - وفقا للعقيدة المسيحية - الذى سبق الاحتفال بالعيد، فأظهر المسيحيون رغبتهم فى عدم الاحتفال بالعيد حداداً على المسيح، و حتى لا يشاركوا اليهود أفراحهم، ولكن أحد القديسين أمرهم بأن يحتفلوا بالعيد تخليداً لذكرى المسيح، وأن يصبغوا البيض باللون الأحمر ليذكرهم دائمًا بدمه الذى سفكه اليهود، وهكذا ظهر بيض شم النسيم لأول مرة مصبوغًا باللون الأحمر، ثم انتقلت تلك العادة إلى مصر، حيث بدأ الأقباط الحفاظ

عليها وتعميمها بجانب ما توارثوه من الرموز والطلاسم والنقوش المصرية .

أما عن عادة تلوين البيض بمختلف الألوان فقد أرجعها راوى سيرة الظاهر بيبرس إلى أنه تمت هزيمة الصليبيين فى المنصورة، وتم أسرهم والاتفاق على خروجهم، وكان ميعاد هذا الخروج موافقاً ليوم شم النسيم و قد خرج الجنود المهزومون منكسى الأعلام عن طريق دمياط، وكانت أعلامهم متعددة الألوان (الأحمر والأخضر والأزرق) فقام أهل دمياط بتلوين البيض بنفس الألوان وأخذوا يرفعون البيض بأيديهم إلى أعلى دليلاً على الانتصار، ومع ذلك يحتفل العالم أجمع فى أعياد الربيع ويقومون بتلوين البيض، واصطلح الغربيون على تسمية بيض شم النسيم باسم (بيضة الشرق).

وللبيض دلالة فى الميراث الشعبى لكثير من الأمم، ويعتبره دارسو الميراث الشعبى متصفًا بالخصائص التى ترمز إلى الأرض – الحياة – أو مستقر الروح، وقد ظهر البيض فى الشعائر المتصلة بالخصوبة، فقد كان من العادات أن تدوس العروس البيض أول دخولها بيت الزوجية التماسًا للخصوبة، و فى البلاد الجرمانية السُّلافية كانت عجائن من البيض والقمح تهرق على أسنة المحاريث فى أعياد الفصح استثارة لخصوبة الأرض، ومن عاداتهم أنهم كانوا يعلقونه مصبوغًا فى أشجار عيد الميلاد العميقة الخضرة .

للبيض كل هذه الدلالات لدى الأقدمين والمحدثين، وكان الريف المصرى– على مدى تاريخ طويل– يصدر البيض للمدينة، وكان مصدراً لدخل الفلاح، فأصبح الفلاح الآن يشترى البيض بعد أن

كان مصدراً له، يبدو أنها حسبة برما المرتبطة بالبيض أيضًا !.

الفسيخ:

عرف المصريُّ السمك منذ معرفته بالنيل نفسه وكان يُحرم أكل السمك عامة لمدة ثلاثة شهور؛ حيث تقل المياه فى نهر النيل، ولعله أراد بذلك إفساح المجال لإكثار الأسماك فى النيل، لقلة الأسماك فى هذه الفترة. وإن احترام المصرى لدورة حياة الأسماك راجع لتقديس النيل نفسه؛ ولذلك كانوا يجففونه ويحفظونه بالتمليح، كما يشاهد ذلك فى مقبرة (نب كاووحر) فى سقارة، وقد ظهر الفسيخ والسمك المملح بين أطعمة شم النسيم فى الأسرة الخامسة عندما بدأ الاهتمام بتقديس النيل نهر الحياة – الإله (حعبى) – الذى ورد فى متونه المقدسة أن الحياة فى الأرض بدأت فى الماء ويُعبر عنها بالسمك الذى تحمله مياه النيل من الجنة حيث ينبع، ويؤكد علماء البحار وجهة نظر المصريين القدماء فى عدم أكل السمك الطازج فى أوقات معينة من السنة؛ لأن هذه الشهور الثلاثة تكون فترة التكاثر، والسمك يحيض فيها مثل الأنثى البشرية. وبناءً عليه صدر قرار من مجلس الوزراء بوقف صيد الأسماك فى البحر فى شهر يونيه ويوليو وأغسطس.

وقد برع المصريون القدماء فى حفظ الأسماك وتجفيفها وتمليحها وصناعة الفسيخ والملوحة واستخراج البطارخ، و يذكر هيرودوت أنهم كانوا يأكلون السمك المملح فى أعيادهم ويرون أنه مفيد فى وقت معين من السنة وكانوا يفضلون نوعًا معينًا لتمليحه وحفظه للعيد أطلقوا عليه اسم بور وهو الاسم الذى حور فى اللغة القبطية

إلى بورى وما زال يطلق عليه حتى الآن، كما ورد فى بردية إيبرس الطبية أن السمك المملح كان يوصف للوقاية والعلاج من بعض أنواع حميات الربيع و الوقاية من ضربات الشمس. وتعود فلسفة المصرى القديم إلى استخدام الفسيخ لأسباب عقائدية ترجع إلى أن الحياة خلقت من محيط مائى أزلى عميق بلا حدود خرجت منه جميع المخلوقات، وأعقب ذلك بعث الحياة و وضع نظام وقوانين الكون، فكان استجلاب عنصرالسمكة مقترنًا بيومنا هذا؛ إشارة إلى ذلك المفهوم المائى واستحضاراً لروح الحياة وانبثاقها من خلال الإمعان والتعمق فى فكرة الموت، باتخاذ تلك الأسماك المحنطة المملحة منذ زمن طويل كالمومياوات فى توابيتها الخشبية كمأكل فى ذلك اليوم، وقد كان هذا قمة الإيمان بحقيقة روح البعث وعودة الحياة من جديد. ويكون هذا الطعام- فى الغالب- مصحوباً بأكل نباتات جزرية منبعثة من تحت الأرض كناية عن فكرة الانبثاق من عالم الموت السفلى .

ونجد اليوم مع الاحتفال بعيد شم النسيم كل عام حملة إعلامية واسعة النطاق تحذر من أكل الفسيخ يستعان فيها بالأطباء وأساتذة الأغذية والأطباء البيطريين، يحذرون فيها الناس من أكل الفسيخ وكأن الفسيخ- فى حد ذاته- يضر الإنسان، وهذا ليس صحيحاً، بل إن غش التجار فى استخدام أنواع رديئة من الأسماك وطريقة التمليح غير المتقنة هى السبب. ومن الأشياء المضحكة أن يقال إن السمك المملح لا فائدة له وليس به قيمة غذائية، فالتمليح طريقة حفظ مثلها مثل الثلاجة، وأية طريقة حفظ أخرى تفقد جزءاً من القيمة الغذائية وليس كل القيمة، فالتمليح يقضى على كثير من الفطريات

وهذا ليس دفاعًا عن الفسيخ ولكن لا بد أن تكون هناك أمانة علمية، فيجب أن تقدم أبحاث ودراسات جادة فى هذا المجال؛ لأننى وبصراحة كنت فى أحد التسجيلات أتحدث عن شم النسيم، وكان معى أستاذ جامعى فى الطب يتحدث عن أضرار الفسيخ، وبعد اللقاء طرحت عليه الموضوع الخاص بأضرار الفسيخ فقال: إنه أكل فسيخًا وكان نوعه جيداً جداً، ولكن عليه أن يحذر الناس من أكل الفسيخ لفساد ذمم صانعيه وبعض المتاجرين فيه.

البصل:

رغم كثرة زراعة البصل فى مصر إلا أنه لم يظهر على موائد القرابين إلا فى عهد الأسرة الخامسة، ويظهر أن المصريين كانوا يأكلونه بكميات كبيرة إذا ما صدقنا ما ذكره هيرودوت. وكان يستعمل فى الوصفات الطبية كثيرًا لشفاء عدة أمراض، وقد ظهر البصل ضمن أطعمة شم النسيم التقليدية فى أواسط الأسرة السادسة وارتبط ظهوره بما ورد فى إحدى أساطير منف القديمة التى تروى أن أحد ملوك الفراعنة كان له طفل وحيد، وكان محبوبًا من الشعب وقد أصيب الأمير بمرض غامض عجز الأطباء والكهنة والسحرة عن علاجه، وأقعد الأمير الصغير عن الحركة ولازم الفراش عدة سنوات منعت خلالها الأفراح والاحتفال بالعيد مشاركة للملك فى أحزانه. وكان أطفال المدينة يقدمون القرابين للإله فى المعابد فى مختلف المناسبات ليشفى أميرهم المحبوب،واستدعى الملك الكاهن الأكبر لمعبد آمون من طيبة، فنسب مرض الأمير الطفل إلى وجود أرواح شريرة تسيطر عليه وتشل حركته بفعل السحر الأسود. وأمر الكاهن بوضع ثمرة ناضجة من

ثمار البصل تحت رأس الأمير فى فراش نومه عند غروب الشمس بعد أن قرأ عليها بعض التعاويذ، ثم شقها عند شروق الشمس و وضعها فوق أنفه ليستنشق عصيرها، كما طلب منهم تعليق حزم من أعواد البصل الطازج فوق السرير وعلى أبواب الغرفة وبوابات القصر لطرد الأرواح الشريرة، وتشرح الأسطورة كيف تمت المعجزة، وغادر الطفل فراشه، وخرج ليلعب فى الحديقة وقد شُفى من مرضه الذى يئس الطب من علاجه، فأقام الملك الأفراح فى القصر لأطفال المدينة بأكملها، وشارك الشعب القصر فى أفراحه، ولما حل عيد شم النسيم بعد أفراح القصر بعدة أيام، قام الملك وعائلته وكبار رجال الدولة بمشاركة الناس فى العيد، كما قام الناس– إعلانًا منهم للتهنئة بشفاء الأمير– بتعليق حزم البصل على أبواب دورهم، كما احتل البصل الأخضر مكانة على مائدة شم النسيم بجانب الفسيخ والبيض، ومما هو جدير بالذكر أن تلك العادات التى ارتبطت بتلك الأسطورة القديمة، سواء وضع البصل تحت وسادة الأطفال وتنشيقهم لعصيره، أو تعليق حزم البصل على أبواب المساكن والغرف، أو أكل البصل الأخضر نفسه مع البيض والفسيخ، ما زالت من العادات والتقاليد المتبعة إلى الآن، لا فى مصر وحدها، بل انتقلت منها إلى عدة شعوب أخرى، ويطلق على البصل فى اللغة المصرية القديمة بدجر أو بصر، وقلبت الراء إلى لام فى اللغات السامية وخاصة العربية، وقد وجدت بعض النقوش الهيروغليفية فى تقديس البصل .

وقد كان هناك عيد خاص بالبصل والمحاصيل ضمن أعياد الحصاد المصرية القديمة اسمه عيد (نتريت) و يقع فى ٢٩ كيهك

ضمن الاحتفاليات الآزورية الخاصة بشهر كيهك، وكانوا يطوفون فيه حول الدار البيضاء (منف) تبركًا به، واعتاد الناس فيه أيضًا تعليق حزم البصل على أبواب المنازل وأن يصبوا عصيره على عتب الباب ووضعه تحت وسائدهم وشمّه عند مطلع الفجر اعتقاداً منهم بأنه يطرد الأمراض، كما اعتادوا أن يضعوه قرب أنف الطفل عند ولادته لما له من رائحة نفاذة، كما كانوا يقدمون في هذا العيد بواكير محاصيلهم هدية وقرابين، ويمشون وراء تمثال الإله فتاح (سَكر) .

والبصل من المحاصيل التى ذكرت فى التوراة وفى القرآن مرتبطة بمصر عند خروج بنى إسرائيل ونزول المَنِّ والسلوى عليهم من السماء فرفضوا هدية السماء وطلبوا من موسى- عليه السلام- أن يأكلوا عدسًا وبصلاً فقال لهم اهبطوا مصرًا قال تعالى: (وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) سورة البقرة الآية ٦٠.

ولأن منافع البصل كثيرة جداً فقد ضربت به الأمثال الشعبية، ونداءات الباعة، فنجد بائع البصل يقول (البصل ياما ينفع) كما نجد المقولة الشعبية (دا يعرف الكفت) والكفت فى الحقيقة هو الغشاء الرقيق بين لفافات البصل. والمقصود هنا أنه يعرف دقائق الأمور، وأخذ البصل من المعنى اللاهوتى أنه المحصول الأرخص و الأدنى

وعبر عنه فى الأمثال (صام صام و فطر على بصلة) كما اتخذوا من رائحته النفاذة أمثالاً (يا داخل بين البصلة وقشرتها ما ينوبك إلا صنانتها) وأيضًا العسل عسل والبصل بصل... إلخ، ورغم ذلك تبقى منافع البصل المتعددة مظهرًا من مظاهر الاحتفال بشم النسيم، بل تجاوز ذلك، و فى المعتقد الشعبى أن البصل يعالج حالات الإغماء، فعندما يصاب شخص بحالة إغماء يضعون بصلة مقطوعة فوق أنفه؛ لأن الرائحة النفاذة للبصل تعيد له الوعى، وأيضًا فى اعتقادهم أنها تطرد الأرواح الشريرة، وهو نفس ما اعتقده القدماء .

الخس:

هناك أنواع عديدة لنبات الخس الذى كان يزرع فى مصر القديمة منذ أقدم العصور، وقد عرف على صور المعابد والمقابر ابتداءً من الأسرة الرابعة، ومُثل بسلال القرابين بورقه الأخضر الطويل الضارب إلى الزرقة، وعثر على حبات بذوره المحفوظة الآن بمتحف برلين وكذلك المتحف الزراعى بالدقى.

وكان الخس يسمى بالهيروغليفية (عب) أو (حب) أو (عبو) وبالقبطية (أوب)، كما اعتبره المصريون القدماء من النباتات المقدسة الخاصة بالمعبود (من) أو (مين) إله التناسل ويوجد رسمه منقوشًا دائماً أمام المعبود (من) وتحت أقدامه فى معابده ورسومه، كما اشتهرت بزراعته مدينة أخميم (خم من) أو أرض إله التناسل، وكذلك مدينة (قفط) وادى الإله، وكان يصدر منها إلى مختلف بلاد القطر فى الأعياد وتقدم منهما القرابين إلى المعابد ولا تزال هاتان المدينتان تنتجان أجود أنواع الخس و زيته إلى الآن .

وقد ذُكر الخس فى بردية (إيبرس) ثلاث عشرة مرة فى وصفات نافعة لوجع الجنب وقتل الدود والنزلات الحادة وأمراض الجهاز الهضمى والعصبى وقرحة المعدة والأمراض الروماتيزمية، كما وضعت هذه البردية قائمة من التراكيب الطبية الخاصة بالخس ومركباته و زيت بذوره التى تحتوى -بجانب فيتامين هـ- على نسبة عالية من فيتامين ج، وأملاح الكالسيوم والفسفور والحديد وأثرها واضح على هذه الأمراض التى سبق ذكرها، وهذا يكشف سر اهتمام المصريين القدماء بالخس و تقديسه، والاحتفال ببشائره فى عيد شم النسيم، فقد أثبتت البحوث العلمية التى قام بها علماء السويد العلاقة بين الخس وهذا الإله (إله التناسل و الخصب والحيوية) فقد وجد أن زيت الخس يزيد من القوة الجنسية لاحتوائه على فيتامين هـ، وبعض هرمونات التناسل التى تستعمل حاليًا فى علاج الضعف الجنسى .

كما ذكرت البرديات الطبية القديمة فوائد زيت الخس و زيت بذوره الذى كان يستخدم فى الطعام والتدليك والطب، والخس(الخص) يطلقونه فى الصعيد أيضًا على نبات السريس النابت فى البرسيم، ودائمًا ما يربطون بين الخس وحالات العشق والغرام وأغانى الحب، كما كان يفعل القدماء فى الربط بينه و بين إله التناسل:

ريان ريان يا قليب الخس ريانى
وأنا رأيتها فى الطشت وسطانى
لابسه شلاكى جديدة وطالعة تلالى

طالعةعلى فوق
واطوحت لى بالحلق والطوق
واصبر شوية يا عديم الذوق
تلاتين ريال إنها تحل سروالى .

الملانة:

الحمص عرف فى مصر منذ عهد الدولة القديمة، ويوجد نموذج منه فى عهد الأسرة الثامنة عشرة محفوظ بقسم الزراعة القديمة بمتحف الزراعة المصرية القديمة بالدقى، وأطلق قدماء المصريين على ثمرة الحمص الأخضر اسم (حور بيك) أى رأس الصقر؛ لشكل الثمرة التى تشبه رأس حور الصقر المقدس، وأطلقوا على الملانة التى يؤخذ منها الحمص طبول الحصاد؛ لأن نموها يكتمل فى بداية هذا الفصل عندما تهب نسماته فتهتز مع الهواء وتصدر أصوتًا كقرع الطبول إيذانًا بحلول فصل الحصاد .

وكان للحمص -كما للخس - الكثير من الفوائد والمزايا التى ورد ذكرها فى بردياتهم الطبية؛ فوصفت ما يحتوى عليه الحمص من عناصر تستخدم فى علاج الكلى والكبد والمثانة، وذلك لما يحتويه من عصير حباته الخضراء - الملانة - من مواد تساعد على وقاية الأطفال من أمراض الربيع، كما وصفت بردية (إيبرس) استعمال الحمص المطحون فى وقف نزيف الجروح وتطهيرها وسرعة التئامها، وكانوا يعتبرون نضج الثمرة وامتلاءها إعلانًا عن ميلاد الربيع، وهو ما أخذ منه اسم الملانة أو الملآنة، وكانت الفتيات يصنعن من حبات الملانة الخضراء عقوداً أو أساور يتزين بها فى الاحتفالات بالعيد،

كمـا يقـمن باسـتـعـمـالـهـا فى زينة الحـوائط والنوافـذ فى الحـفـلات المنزلية.

على هامش الطعام:

الإوز والبط:

كان الإوز أيضـا من الأطعمة المحببة لدى المصريين القدماء فى الاحـتـفـال بعـيـد الحـصـاد، رغم أنه ليس من الخـمـاسـيـة المقدسـة (البيض، الفسيخ ، البصل الأخضر، الخس، الملانة) غير أنه ارتبط بهذا العيد ارتباطًا شديدًا، حيث كان يأكله المصرى القديم فى ظهيرة يوم الرؤية مع شراب الجعّة (البيرة) ويبدو أن للإوز فى مصر القديمة والمجتمعات الزراعية قيمةً من نوع خاص؛ لأننا نجد رأس الإوزة كانت تُزين بها معظم الآلات الموسيقية، وكثيرًا ما كانت رسومات هذه الرأس فى آلة الكنارة(السمسمية) وكذلك كان للبط أهمية كبرى لدى المصرى القديم .

أشياء أخرى غير الطعام

١-الياسمين:

ومن تقاليد شم النسيم المصرية القديمة التزين بعقود زهور الياسمين، واسم الياسمين نفسه محرف من الاسم المصرى القديم (ياسمون) وكانوا يصفون الياسمين بأنه عطر الطبيعة التى تستقبل به الحصاد، وكانوا يستخرجون منه فى موسم الحصاد عطور الزينة و زيت البخور الذى يقدم ضمن قرابين المعابد عند الاحتفال بالعيد .

٢- الكحل:

وأما عادة الاكتحال فى عيد شم النسيم؛ فلكثرة أمراض الرمد

المعروفة باسم الرمد الربيعى الذى كان يصيب أغلبية المصريين- نتيجة انقلاب الجو وتكاثر الذباب وأتربة رياح الخماسين- استخدم المصرى القديم الكحل، رجالاً ونساء وأطفالاً وشيوخًا، لاتقاء أمراض العيون واكتشفوا بعد هذا الغرض الوظيفى أن الاكتحال يعطى جمالاً و زينة عالية، فتمسك المصرى بعادة الاكتحال التى ما زالت موجودة حتى الآن ككل العادات المتصلة بهذا العيد، وكأن الميت يمسك بتلابيب الحى ويعيش بداخله رغم مرور أديان وثقافات ورغم اختفاء المعتقد نفسه، إلا أن هذا المعتقد ظل حيًا من خلال عاداته التى يتنفس بها ويطل علينا من خلالها .

ويظهر هذا من خلال البسطاء- الذين هم فى الأغلب الأعم- يحافظون على هويتهم وشخصيتهم القومية، وذلك من خلال حفاظهم على هذه العادات نفسها. وخاصة إذا ارتبطت هذه العادات بالأرض والزراعة، فما بالك بهذا العيد، عيد الأرض والزراعة، فالأرض الزراعية فى معتقدهم خاصة بالآلهة وظنوا أن ولديها حورس وست قد قسماها إلى منطقتين متمايزتين، ونسبة ملكية الأرض إلى الآلهة والقوى غير المنظورة شائعة فى المجتمعات الزراعية كافة ومنها امتلاكها بواسطة إنسان، فبروح الإله (فرعون) أو جملة أفراد لهم قداسة واعتبار اجتماعى فريد كرؤساء العشائر ورجال الدين... وهذا النظر الأسطورى جرى عبر القرون، وإن كانت تطورات الملكية الفردية قد أزالت الكثير منه .

وما زلنا نجد فى المعتقد الشعبى بعض تلك البقايا الأسطورية القديمة، ونضرب هنا مثلين لأفكار تشيع فى الحكايات، الأول عبارة

(دستوركم يا أسيادى) كلما وطئ البطل أو البطلة الأرض التى يظن أنها مسكن الجان و هى عادة أرض خراب، أو الأمكنة الشاذة فى المنازل، فذلك النموذج للظن أن قاطنى هذه المناطق أرواح غير منظورة وأنها مراكز السيادة، والمثل الثانى خاص بحمل العروس ليلة زفافها عند دخولها بيت زوجها، تلك العادة التى تعنى وقاية العروس من أن تتلبسها أرواح الآباء الموتى التى تسكن الأرض، وأيضًا عندما يقع طفل صغير على الأرض ويقولون له (وقعت على أختك اللى أحسن منك) وهى ترجع إلى أن للأرض قرينًا، فالأرض محور الفلسفة الزراعية المصرية الشمسية .

الفصل الرابع
شم النسيم والحضارات القديمة

انتقل احتفال شم النسيم المصرى وتجاوز حدود مصر إلى ممالك العالم القديم بنفس الفلسفة الآزورية التى تعبر عن البعث وتجدد الحياة، فنجد نفس الأسطورة تأخذ أشكالاً مختلفة للتعبير عن الحصاد، إله يموت ثم يعيش فتنتعش الدنيا وتزدهر، انتقلت الاحتفالات بعيد شم النسيم (شمو) المصرى القديم أيضًا بنفس الوظيفة العبادية، فالديانة فى مصر القديمة كانت ديانة وظيفية،لكل إله وظيفة وغرض من تقديسه، وانتقل هذا العيد بأسماء مختلفة وعادات قد تتشابه أحيانًا وتختلف أخرى، ومع ذلك اتخذت الحضارات القديمة هذا العيد رأسًا لسنتهم كما فعل المصريون القدماء بأن اتخذوه رأسًا لسنتهم غير الزراعية - سنتهم المدنية - واعتبروه أيضًا بداية الخلق وأول الزمان؛ كما فعل المصريون وأقاموا الطقوس والاحتفالات مثلما فعل المصريون القدماء؛ مما أضفى على هذا العيد استمراريته وممارسته؛ لأنه أصبح عيدًا عالميًا مارسته الحضارات القديمة ولا يزال يعيش فى وجدان العالم أجمع. وفى هذا الفصل سنتعرف على ملامح هذا العيد فى الحضارة البابلية والفينيقية والفارسية.

أولاً: عند البابليين:

عيد رأس السنة عند البابليين يعتبر من أهم أعياد العراقيين فى تاريخهم القديم؛ حيث يحتفل به لمدة ١٢ يومًا، ويبدأ العيد فى الأول من نيسان (أبريل) و ينتهى فى الثانى عشر منه، وكان احتفال البابليين ثم الآشوريين بهذا العيد مشاركة منهم للأرض فى أفراحها،حيث تتزين فى بداية كل عام فى فصل الربيع وتلبس حلته فتتشبه بسائر المخلوقات، ويعنى الاحتفال عند البابليين بأعياد رأس السنة احتفالهم بخلق الأرض وحلول الاستقرار والخير والبركة ، كما يتضح ذلك فى قصة الخليقة البابلية، حيث تقام الاحتفالات فى معابد المدن، ويشارك فيها الملك وتقام فى المعبد الرئيس للإله أو المدينة، وقد سجلت هذه الاحتفالات على ألواح الحجر والأختام الأسطوانية، كما وصفت بالكتابة المسمارية وكانت تقسم إلى اثنى عشر يوماً ، فالأيام الأولى لتقديم الضحايا والقرابين وتعيين درجات الكهنة ومراتبهم، ليأخذوا مكانتهم فى الاحتفالات وليقوموا بوظائفهم كل حسب طبيعة درجته فى الكهانة ، مبتدئًا (بالأورلو) - رئيس الكهنة - وللاحتفال مكان معين يعرف ب (أكيتو) - بيت الاحتفالات - وكلمة أكيتو تعنى عيد رأس السنة .

* ففى اليوم (الأول) يأتى الإله (نابو) من معبده - البيت الحصين - فى بروسيا، لزيارة والده الإله (مردوخ) فى بابل للاشتراك فى هذا الاحتفال، فيأتى رئيس الكهنة فى المقدمة والكهنة خلفه ليكسوا تمثال الإله (مردوخ) بكسوة ثمينة قشيبة من المحتمل أنها كانت بيضاء اللون .

* وفى اليوم الثانى يتكلم رئيس الكهنة ويقوم وحده بالطواف حول تمثال الإله المقدس مردوخ، وقبل الفجر يتطهر بمياه النهر ويرتدى ثوبًا من الكتان ويغشى معبد مردوخ ويأخذ فى مناجاة الإله ثانية، ثم يُشرع الأبواب كالمعتاد ويكون قد دخل قبله السادن والكاهن المختص بترتيل قصائد العزاء، ويلتحق بهما كاهن آخر يشاركهما فى قراءة تلك التراتيل، ويستمرون فى إقامة الصلاة أمام الإله مردوخ، ويؤدون بعض المراسم الدينية لتاج الإله (أتو) ثم يصلون ثلاث مرات للإله (ديب) كما تُحضر أمور كثيرة وتوضح عدة مواعيد أمام الإله، وقد ورد وصفٌ لهذا اليوم على رقيم طينى، لكنه غير كامل إذ إن بعض الأسطر فى الكتابة المسمارية مخربة وجاء فيه :

أيها السيد بابيل
الذى ليس له مثيل
عندما يغضب
أيها السيد بابيل
الملك الجليل...

وبعد هذه الصلاة يأتى الكاهن ويتوجه إلى باب المعبد ويفتحه وينهض كهنة المعبد الذين يسمون بالأكدية (إيربابيتو) أى خدم المعبد، ويؤدون الصلاة ، وينشدون التراتيل أمام الإله بيل والإله بيلت (مردوخ وزوجته) ثم يقوم الكهنة النائحون- ويُعرَفونَ بالبابلية- باسم (كالو) بإنشاد التراتيل المحزنة، ثم تمضى ثلاث ساعات على شروق الشمس،فينفرد على أثرها رئيس الكهنة بإقامة الصلاة لمردوخ الإله،

ثم يشترك معه بقية الكهنة فى الصلاة، وتعاد الحفلات السابقة ذاتها، وبعد المغيب بثلاث ساعات يستدعى (أوركلو) رئيس الكهنة حداداً وثلاثة صناع مهرة وحائكًا ويعطيهم عدداً من الجواهر وذهبًا من خزينة الإله مردوخ ، ليقوم هؤلاء بصناعة تمثالين لاحتفالات اليوم السادس من أيام العيد، فيعطى (أوركلو) الإله بيل قطعًا من لحم الغنم المذبوح كقرابين ، ابتداءً من اليوم الثالث حتى السادس كهدية للصناع، الصانع له صدر الخروف والنجار والحائك أضلاعه وأما الكتف فمن نصيب الحفّار ! وهكذا ينتهى اليوم الثالث.

* وفى اليوم الرابع ينهض (الأوركلو) قبل الفجر بثلاث ساعات أيضاً ويغتسل بماء النهر ويلبس أحرانًا من الكتان الأبيض ويقف أمام الإله بيل وعليه أن يقرأ الصلاة رافعًا يديه نحوه ليرحم الشعب ويفيض مياه النهر فى المسقى ويعطى المنتوج الزائد للمواشى، إثر الدعاء يُفتح الباب ويدخل جميع الخدم (إيبرب بيتو) ليؤدوا طقوسهم كالمعتاد ويحذوا حذو الكهنة النائحين الذين يعرفون ب (كالوا) وينشدون تراتيلهم الدينية، وعند الانتهاء منها وبعد تناول طعام العصر يقوم كاهن المعبد (الأوركلو) بالقراءة على (النوما إيلش) أى قصة الخليقة عند البابليين، رافعًا يديه نحو بيل، وعليه القماش المنسوج باليد (كلالو)المصنوع من الكتان الأبيض ويقرأ صلاة طويلة فيها دعاء طويل زهاء ساعتين عن المدينة والرحمة والقوة .

وبعد ذلك ينسحب من أمام الإله ويقرأ الترتيلة الملحنة وهى موجهة إلى الإله (إنليل) وتستغرق فترة من النهار، وعند ذلك الحد تكون الشمس قد بزغت، وبعد شروقها بساعتين تجرى عملية تطهير

للإله (نابو)؛ إذ يرشه المعزم بماء مستقى من نهر الفرات ودجلة، وهنا تقرع الصنوج ويحرق البخور ولا يغشى المعزم معبد مردوخ، حيث يعتزل (الأوركلو)، بل يعود إلى هيكل (نابو) فيمسح مصاريع أبوابه بدهن الأرز ويدعك جدرانه بجثمان حمل (خروف) قام جلاد لتوه بقطع رأسه، ثم يخرج المعزم والجلاد معًا، الأول يحمل جثمان الحمل والثانى يحمل رأسه ويطرحانهما فى نهر الفرات، وقد تنجسا بملامسة الضحية، ولذلك يبقيان خارج أسوار المدينة إلى نهاية أعياد الأكيتى!

وفى هذه الأثناء يكون الأوركلو فى معبد الإله مردوخ معتصمًا لئلا يتنجس بمجرد رؤية تطهير الهيكل، وبعد الثالثة بقليل يخرج من اعتكافه ويدعو بعض العمال ويذهب الجميع باتجاه الكنز، فيأتون بماء الذهب يغطون به هيكل (نابو) من أعــلاه إلى أدناه، ويذبح (الأوركلو) لمردوخ، ويذهب على الأثر بالمذبح الذهبى الذى قرب عليه ذبيحته، ويضع قرب القناة سفينة ذهبية ليستعين بها (نابو) ساعة إقلاعه؛ حيث يحمل تمثاله ويبحر به فى نهر الفرات.

* وفى اليوم الخامس من أيام رأس السنة، تأتى الآلهة من أنحاء البلاد كافة على بابل، وفى باحة (الأهيبو زغيتيلا) يجرى قطع رأس التمثالين اللذين صنعا فى اليوم الثالث ويلقى بهما فى مجمعه،ويأتى الملك وربما الإله وإله بروسيا فيدلف إلى معبد (إيزاكيلا) ليلمس يد الإله مردوخ، وتجرى على الملك مراسم غريبة فى هذا المعبد.

إذ يُترك الملك فى معبد (إيزاكيلا) بمفرده، ويخرج الإله (أوركلو) ويعريه من شاراته الملكية (الصولجان والعصا المعوجة) ويرفع التاج

من فوق رأسه ويأخذ منه السلاح والجزية، وهنا يكون الكاهن قد أخذ الشارات كلها ويضعها على مقعد أمام مردوخ، ويعود الملك فيصفعه الكاهن على خده ويدخله على الإله ويشده من أذنه ويأمره بالوقوع على الأرض، وبعد ذلك يقر الملك بهذا الإقرار السلبى الذى هو بمثابة صلاة الغفران، ثم يولول الملك ويتوسل بالإله (بيليل ومردوخ) قائلاً:

لم أخطئ إليك يا ملك البلاد
ولم أقصر فى إكرامك
لم أقوض بابل
ولا أمرت بتشريد أهلها
لم أهدم الإزاكيلا
ولا تناسيت مراسيم العبادة
لم أصفع خد الوافدين
ولا سُمتهم بالذل
أعتنى ببابل
أعتنى ببابل أشد عناية
ولم أقو يوماً
لأهدم أسوارها.
وبعد ذلك يرد الكاهن :
لا تجزع ودعنى أباركك إلى الأبد
سوف يدمر أعداءك
ويقضى على خصومك

ويُترك الملك بعد أن يصفعه الكاهن ثانية على خده، وهنا لا بد وأن تتساقط دموع الملك، فإن لم يبك فهذا يعنى شؤمًا على الدولة .

* وفى هذا اليوم السادس وبعد المغيب يجمع الأوركلو حزمة من أربعين قصبة تشدها سعفة نخيل ويطرحها فى حضرة وسط باحة الهيكل الكبرى، ولا يلبث أن يصب عليها الزبد والزيت ويؤتى بثور يطرح فوقها، ويتناول الملك قصبة مشتعلة ليضرم فيها النار فيختم اليوم السادس. وهذا اليوم هو يوم الإعدادات الأخيرة للطواف، وهنا تمثل دراما محزنة للإله وصعوده .

* وفى اليوم السابع يُجرح الإله ويموت ويبحث عنه الناس فى كل مكان مولولين ونائحين، وفيه تسود الفوضى ويحل الافتراق وتُشد عربة بحصان شموس (قاسٍ) حيث يعبر شوارع المدينة على غير هدى فيحدث القلق ويعم الخراب فى البلاد، وفى هذه الأثناء يسلم الحكم لأحد الغوغائيين، إذ يلتف حوله عدد من المجانيين والفوضويين، فيحكم كيفما يشاء، فيقتل وينهب ويغتصب ويظل يعبث بمقاليد البلاد طوال النهار حتى تغرب الشمس، عندها ينزل من العرش ويُنْتَزَع منه التاج والصولجان ويُقَدَّمان للملك الشرعى الذى يعود عرشه وسط تهانى الشعب وأفراحه .

* وفى اليوم الثامن يرجع مردوخ للحياة وينظم برجوعه كل شىء، ويجتمع الملك فى معبد الإله مردوخ، وتُعين آجال البشر فى السنة الجديدة، ثم يبدأ سير المحفل ويأخذ الملك يد الإله مردوخ ويعيد إليه رئيس الكهنة شارة الملك والصولجان والعصا المعوجة والسلاح والتاج ويصبح الملك الشرعى للبلاد،وللملك دون سواه أن

يمشى دون الإله ويذهب إلى مكان يسمى الأمايتى، وفيما خلا مدينة بابل كان يحق للملك أن يتمثل بردائه فى سائر المدن، يعنى فى العاصمة كان الملك يقوم بهذا العمل أما فى باقى المدن فكان يرسل بعضاً من ملابسه وأدواته حتى تأخذ مقامه فى المدن الأخرى .

* أما فى اليوم التاسع والعاشر والحادى عشر فينطلق الموكب ليتجه شمالاً فيعبر باب عشتار وينتهى إلى نهر الفرات حيث يستقل الملك سفينة تنقله إلى (رصيف الأورانو) ومنه إلى معبد هيكل الصلوات، فتمكث الآلهة لمدة ثلاثة أيام (١١،١٠،٩) حيث تمثل دراما رمزية للخليقة، وبعد ذلك تعود الآلهة إلى معبد (الإيزاكيلا) مساء الحادى عشر، حيث تعقد اجتماعها الأخير الذى تؤكد فيه مرة أخرى آجال البشر التى عينها الإله مردوخ وسجلها على ألواح القدر والآجال .

وبعد استراحة قصيرة فى المعبد يدخل مردوخ إلى معبده حيث يقضى ليلته فى مخدع مع سيدة من أجمل بنات كهنة معبد الإله.

* وفى اليوم الثانى عشر من أعياد رأس السنة، تغادر الآلهة مدينة بابل، ويذهب كل إله إلى مدينته، وفى المقدمة يرجع الإله نابو إلى مقبرة فى بروسيا إلى أن تُعاد الكرَّة ثانية فى العام الجديد.

وهنا يتبين مدى التشابه بين قصة الخلق المصرية الآزورية، وبين قصة الخلق البابلية من حيث موت الإله وعودته وكأنها تعويذة سحرية تعبر عن تجدد الحياة وبعثها؛ لأن الحصاد يمثل الحياة عند المجتمع العراقى القديم، كما كان يمثل عند المجتمع المصرى، لذا فإن موت الإله (أوزوريس - مردوخ) عند المجتمع المصرى والعراقى

الزراعيين، هو موت للحياة، لأن الحياة بدون زراعة جدب وتصحر وجوع وهلاك، فموت إله الزرع يكون موتًا لحياتهم، ولا بد من حماية الزراعة فى صورة حماية هذه الآلهة نفسها وعودتها إلى الحياة لتتجدد وتنتعش الطبيعة وتزدهر، وسنجد صورة كربونية من هذه القصص لدى الآشوريين والفينيقيين.

ثانياً: عند الفينيقيين والآشوريين والإغريق :

احتفل الآشوريون والفينيقيون بالحصاد وازدهار الطبيعة بنفس القصة الدرامية، قصة الخلق من خلال موت الحياة وبعثها سنويًا، لاسيما حياة النبات، كما احتفل المصريون تحت اسم أوزوريس والبابليون تحت اسم مردوخ فها هم يحتفلون بتموز أو أدونيس فى صورة كربونية، وأدونيس هذا كانت تعبده الأقوام السامية فى وادى الرافدين وسوريا، ثم أخذ الإغريق عبادته عنهم زُهَاء القرن السابع قبل الميلاد، وكان اسم الإله الحقيقى تموز، وتسميته أدونيس جاءت من الكلمة السامية ومعناها (السيد) وهو لقب احترام كان يطلقه عليه عُباده، وفى النص العبرى لكتاب العهد القديم كثيراً ما كان يطلق هذا الاسم على يهوه بشكل أدوناى، ولعلها أصلاً أدونى أى سيدى، غير أن الإغريق أساءوا الفهم فحولوا لقب الاحترام إلى اسم علم، وتنتشر عبادة تموز أو أدونيس بين الأقوام السامية الأصل، وإن كانت هناك بعض الأسباب تدعو إلى الظن بأن عبادته بدأت أصلاً بين جنس يختلف عنهم دمًا ولغة، و هم السومريون الذين قطنوا البطاح المترامية فى رأس الخليج العربى وأوجدوا حضارة دعيت فيما بعد بالحضارة البابلية، ومهما يكن موطن

السومريين الأصلى، فإنه من المؤكد أنهم بلغوا أوجًا عاليًا من الحضارة فى زمن مبكر جدًا فى بابل الجنوبية، فقد حرثوا الأرض و ربوا المواشى وبنوا المدن وحفروا القنوات، بل وابتدعوا ضربًا من الكتابة أخذه عنهم جيرانهم الساميون فيما بعد، ويظهر أن تموز كان من أقدم آلهتهم، وإن لم يكن من أشدهم خطورة، ويتألف اسمه من عبارة سومرية معناها الابن الحق للمياه العميقة. ويوجد على النقوش السومرية عدد من القصائد فى مدح تموز دونت قبل المسيح بألفى سنة.

ويظهر تموز فى آداب بابل الدينية كزوج أو محب شاب لعشتاروت الإلهة الأم الكبرى التى كانت تتجسد فيها قوى التناسل فى الطبيعة، والإشارات إلى العلاقة التى بينهما فى الأساطير والمراسيم متقطعة غامضة. غير أننا نستنتج منها أن الناس كانوا يعتقدون أن تموز يموت كل سنة متنقلاً من أرض المسرات إلى العالم المظلم تحت الأرض، وأن قرينته الإلهية ترحل كل سنة للبحث عنه فى البلاد التى لا عودة منها، إلى دار الظلام، حيث التراب مكوم على الأبواب، و فى أثناء غيبتها تنقطع عاطفة الحب عن الشبوب فى الصدور، فينسى الإنسان والحيوان على السواء الرغبة فى التكاثر، فيرسل الإله (أيا) رسولاً لينقذ الحياة من الفناء، غير أن إلهة الجحيم أو الآتو (أقصار) لا تسمح لعشتاروت بأن تضخ نفسها بماء الحياة وتعود إلى الأرض العليا ربما مع حبيبها تموز لكى تنعش الطبيعة بعودتها من جديد.

ويظهر أن الرجال والنساء كانوا يندبونه كل سنة مع موسيقى الناى والمزمار فى أواسط الصين فى الشهر الذى سمى باسمه

(شـهـر تموز) ويلوح أنهم كانوا يرتلون المراثى فـوق تمثـال مـسـجى للإله الميت، وكانوا يغسلونه بالماء النقى ويمسحونه بالزيت ويلبسونه ثوبًا أحمر، فى حين كان البخور يتصاعد فى الهواء كأنه قد يحيى حواسه الساكنة بعطره الحاد فيوقظه من هجمة الموت، وفى إحدى هذه المراثى وعنوانها (نوح المزامير على تموز) نكاد نسمع حتى الآن أصوات المغنين تردد الأبيات الحزينة، ونستبين ألحان المزمار بآهاته المتوجعة، كأنها موسيقى صادرة من بعيد :

ترفع صوتها فى النواح إذ فارق الدنيا
ترفع صوتها فى النواح قائلة :
واولداه !
ترفع صوتها فى النواح قائلة أواه يا داموا
ترفع صوتها فى النواح إذا فارق الدنيا لتقول :
يا حرى يا هنى
هناك حيث أرسلت شجرة الأرز المشرقة
جذورها فى المكان الفسيح
فى عيانا .. فى التلال والوهاد
ترفع صوتها فى النواح
وهى تنوح نوحها على الحشيشة لا تنمو فى تزينها
تنوح نوحها على القمح الذى لا ينبت فى سنابله
غَرفتها مُلكُ لا ينتجُ مُلكاً
امرأة قد نال الإعياء منها
طفلة أصابها التعب فخارت قواها

تنوح على نهر عظيم حيث الصفصاف لا ينمو
تنوح على حقل حيث القمح والأعشاب لا تنمو
تنوح على بركة حيث لا سمك ينمو .

نلاحظ تشابهًا واضحًا بين نواح إيزيس ونفتيس على أوزوريس وعودته إلى الحياة، وبين هذا النواح على أدونيس، وهذه الملاحظة قد لاحظها اليونانيون المتمصرون فى العصر الصاوى، فخلقوا علاقة صداقة تجمع بين إيزيس وعشتاروت، ومدوا أسطورة الخلق المصرية إلى سوريا. ونلاحظ أيضًا أن قصة الخلق المصرية واحتفالاتها فى القوارب وتمثيلها لمدة شهر كامل، جعل الاحتفال بمردوخ والاحتفال بأدونيس يستمر فترة طويلة، لأنها فى الحقيقة هى القصة السحرية للحفاظ على الزرع والحصاد، هى قصة بعث الحياة وازدهارها، ولكن يبقى فى قصة الخلق المصرية تفرد يتجسد فى الإله ست، رمز الجدب والتصحر والهلاك، فإذا لم يعد أوزوريس إلى الحياة لينعشها سيظهر ست. وقد لجأ المصرى القديم والبابلى والفينيقى إلى هذه التعاويذ السحرية للتعجيل بمجىء الحصاد الذى يعد العيد القومى لاستقرار البلاد، فلم تكن المسألة احتفالاً بطقس وجو، بل احتفالاً بالزرع.. بالخير الوفير.. بالحياة المستقرة.

ثالثاً: عند الفرس:

يحتفل الفرس بأعياد الربيع وبداية السنة بعيد يسمى النيروز، وهو تحريف (نوروز)، ويقال إن أول من اتخذه (جم شاه) أحد ملوك الطبقة الثانية من الفرس، ومعنى شاد هو الشعاع أو الضياء، وسبب

اتخاذهم لهذا اليوم عيداً، أن الدين كان قد فسد قبله، فلما ملك حدده وأظهره، فسمى اليوم الذى ملك فيه (نوروز) أى اليوم الجديد. وفى بعض الروايات أن جم شاه ملك الأقاليم السبعة والجن والإنس اتخذ له عجلة ركبها، وكان أن أبرز لهم وجهه فى أول يوم ركبها ، وكان له حظ وافر من الجمال، فجعلوا يوم رؤيتهم له عيداً وسموه (نوروزاً).

ومن الفرس من يزعم أنه اليوم الذى خلق الله فيه النور، وأنه كان معظماً قبل جم شاه، وبعضهم يزعم أنه أول الزمان الذى بدأ الفلك فيه بالدوران، ومدته عندهم ستة أيام؛ أولها اليوم الأول من شهر (أفرودين ماه) الذى هو أول شهور سنتهم، ويسمون اليوم السادس (النوروز الكبير)؛ لأن الأكاسرة كانوا يقضون حوائج الناس فى الأيام الخمسة على طبقاتهم ثم ينتقلون إلى مجالس أنسهم الخاصة مع ظرفاء خواصهم. وحكى ابن المقفع أنه كان من عاداتهم فيه أن يأتى الملك رجل مليح الوجه يقف على الباب من الليل.. فإذا أصبح دخل على الملك بدون استئذان، ويقف حيث يراه فيقول له الملك.. من أنت؟ ومن أين أقبلت؟ وما اسمك.. وماذا تريد؟ ولأى شىء وردت؟ وما معك ؟. فيقول: أنا المنصور.. واسمى المبارك.. ومن قبل الله أقبلت.. والملك السعيد أردت.. وبالهناء والسلامة وردت ومعى السنة الجديدة. ثم يجلس ويدخل بعده رجل معه طبق من فضة عليه حنطة وشعير وجُلبان وحمص وسمسم وأرز من كل واحد سبع سنبلات وسبع حبات وقطعة سكر، ودينار ودرهم جديدان، فيضع الطبق بين يدى الملك، ثم تدخل عليه الهدايا، ويكون أول من يدخل عليه بها

وزيره، ثم صاحب الخراج، ثم صاحب المعونة، ثم الناس على طبقاتهم. ثم يقدم للملك رغيف كبير مصنوع من تلك الحبوب قد وضع فى سلة، فيأكل منه ويطعم من حضر، ثم يقول: هذا يوم جديد.. من شهر جديد.. من عام جديد، يحق أن يجدد فيه ما أخلق الزمان، والرأس أحق بالفضل والإحسان لفضله على سائر الأعضاء. ثم يوزع عليهم ما وصل إليه من الهدايا.

وأما عوام الفرس فكانت عاداتهم فيه رفع النار فى ليلته، و رش الماء فى صبيحته، ويزعمون أن إيقاد النيران فيه لتحليل العفونات التى أبقاها الشتاء فى الهواء.. ويقال إنما فعلوا ذلك تنويهًا بذكره، وإشهارًا لأمره.. وقالوا فى رش الماء إنما هو بمنزلة الشهرة لتطهير الأبدان مما انضاف إليها من دخان النار الموقدة فى ليلته، وقال آخرون إن سبب رش الماء فيه أن (فيروز بن يزدجرد) قد سئم من (سورجى) وهى أصبهان القديمة لما لم تمطر سبع سنين فى ملكه، ثم أمطرت فى هذا اليوم ففرح الناس بالمطر وصبوا على أبدانهم من مائه من شدة فرحتهم به، فصار ذلك سُنَّةً عندهم فى ذلك اليوم من كل عام. ويقول بعضهم يخاطب من يهواه:

كيف ابتهاجك بالنيروز يا ساكنى
وكل ما فيه يحكينى وأحكيه

فتارة كلهيب النار فى كبدى
وتارة كتوالى عبرتى فيه

أسلمتنى فيه ياسؤلى إلى وصبٍ
فكيف تهدى إلى من أنت تهديه

وأول من رسم هدايا النيروز والمهرجان فى الإسلام هو الحجاج بن يوسف الثقفى، ثم منع ذلك عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه واستمر فى المنع إلى أن فتح باب الهدية فيه أحمد بن يوسف الكاتب حيث أهدى فيه للمأمون سفطًا فيه قطعة عود هندى فى طوله وعرضه.. وكتب معه:

على العبد حق وهو لا شك فاعله

وإن عظم المولى وجلت فضائله

ألم ترنا نهدى إلى الله ماله

وإن كان عنه ذا غنى فهو قابله

فلو كان يهدى للجليل بقدره

لقصَّرَ عنه البحر يومًا وساحله

ولكننا نهدى إليه نُجِلُّه

وإن لم يكن فى وسعنا ما يشاكله

وكتب (سعيد بن حميد) إلى صديق له يوم النيروز:

(هذا يوم سهلت فيه السنة للعبيد الإهداء للملوك، فتعلقت كل طائفة من البر بحسب القدرة والهمة، ولم أجد فيما أملك ما يفى بحقك، و وجدت تقريظك أبلغ فى أداء ما يجب لك، ومن لم يؤت فى هديته إلا من جهة قدرته فلا طعن عليه).

هذا ما يتعلق بنيروز الفرس من ذكر الهدايا وإيقاد النار و رش الماء وأول من سنهّ... ومن جانبنا لا نصدق هذا التضارب فى نشأة النيروز، وهذا ما سنوضحه عند كلامنا عن النيروز الفارسى والنيروز المصرى، أما عن التقويم السنوى الفارسى، فالسنة

الإيرانية سنة شمسية عدد شهورها اثنا عشر شهراً، وتبدأ غالبًا يوم ٣١ مارس من كل عام، ويسمى هذا اليوم نيروز اليوم الجديد وهو يمثل أكبر الأعياد القومية الإيرانية إلى يومنا هذا كما أوضحنا، وهو الموافق لوقت الاعتدال الربيعى.

وقد ظل الفرس يستعملون التقويم العربى، فكانت السنة العربية هى المستعملة فى المكاتبات الرسمية و فى تسجيل الأحداث التاريخية والأدبية، وفى عصر السلطان جلال الدين ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) تم وضع تقويم عرف باسم التقويم الجلالى نسبة إلى هذا السلطان السلجوقى، واشترك فى وضعه الشاعر والفيلسوف المعروف عمر الخيام، وهذا التقويم يقوم على أساس السنة الشمسية مبتدئًا من هجرة الرسول ﷺ، أى أنه تقويم هجرى شمسى. وكان الإيرانيون يستعملون التقويم الجلالى بين الحين والحين كلما قويت الروح الوطنية بينهم إلى أن اتخذوه تقويمًا رسميًا للدولة فى عهد رضا شاه بهلوى، ولا يزالون يتمسكون به إلى اليوم.

والسنة الإيرانية الهجرية الشمسية تشمل اثنى عشر شهراً عدد كل شهر من الأشهر الستة الأولى ٣١ يومًا والأشهر الخمسة الباقية ٣٠ يوماً وعدد أيام الشهر الثانى عشر والأخير ٢٩ يومًا لمدة ثلاث سنوات متتالية ثم ٣٠ يومًا فى السنة الرابعة

والعلماء يحسبون شم النسيم فى زمن محدد من السنة الشمسية، و هى الأيام الثلاثة الأولى من فصل الصيف الموافقة للنوروز الفارسى، وهو اليوم الجديد من السنة الإيرانية، نو (جديد)، روز (يوم أو نهار)، وتقول العرب كثيراً نَيروز بفتح النون، وفى

القاموس المحيط نيروز: أول يوم من السنة (فصل النون باب الزاى).
ولكن ما الفرق بين النيروز المصرى والفارسى ؟

م	اسم الشهر	عدد الأيام	يبدأ من	ينتهى فى
١	فروردين	٣١ يوماً	٢١ مارس	٢٠ أبريل
٢	أرديبهشت	٣١ يوماً	٢١ أبريل	٢١ مايو
٣	خورداد	٣١ يوماً	٢١ مايو	٢١ يونيه
٤	تسير	٣١ يوماً	٢٢يونيه	٢٢ يوليو
٥	مرداد	٣١ يوماً	٢٣ يوليو	٢٢ أغسطس
٦	شهريور	٣١ يوماً	٢٣ أغسطس	٢٢ سبتمبر
٧	مهيره	٣٠يوماً	٢٣ سبتمبر	٢٢ أكتوبر
٨	أبان	٣٠يوماً	٢٣ أكتوبر	٢٢ نوفمبر
٩	آذر	٣٠يوماً	٢٣ نوفمبر	٢١ ديسمبر
١٠	دى	٣٠يوماً	٢٢ ديسمبر	٢٠يناير
١١	تهمن	٣٠يوماً	٢١ يناير	١٩ فبراير
١٢	إسفند	٢٩ / ٣٠ يومًا	٢٠ فبراير	٢٠ أو ٢١ مارس

جدول رقم (١) يوضح شهور السنة الإيرانية الهجرية الشمسية .



الفصل الخامس
النيروز المصرى والنيروز الفارسى

النيروز المصرى هو عيد رأس السنة المصرية القديمة وعيد رأس السنة القبطية، ولا نعنى المسيحية، بل المصرية، لأن كلمة قبطى تعنى المصرى؛ لأنها مشتقة من لفظ (إيجيبتوس) الذى أطلقهُ اليونانيون على المصريين بمختلف عقائدهم، ومنها جاءت كلمة مصر فى كل اللغات الأجنبية، وظل هذا الاسم يعبر عن جميع المصريين بمختلف عقائدهم حتى بعد دخول مصر فى الإسلام، فمعظم رسائل عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما كان يقال فيها الأقباط المسيحيون والمسلمون؛ أى الذين دخلوا الإسلام من أهل مصر.

فنحن أمام عيد قومى مصرى مثله مثل عيد شم النسيم، عيد مرتبط بالدورة الفلكية التى تنتظم عليها الزراعة المصرية، حيث إن تقسيم الزمن بدأ فى مصر عام(٤٣٤٠ ق.م)وكانت السنة (رنبت) بالهيروغليفية (رونبى) بالقبطية فى الحساب الفلكى المصرى القديم تتكون من ٣٦٥ يومًا وتنقسم إلى ثلاثة فصول كل منها أربعة أشهر، فصل الفيضان (آخت)، فصل بذر البذور (برث)، وفصل الحصاد (شمو)، وهكذا تتكون السنة المصرية من اثنى عشر شهر (آبد) بالهيروغليفية (وآبوط) بالقبطية كل منها ٣٠ يومًا ويضاف إليها شهر صغير (كوجى آن آبوط) بالقبطية لتصبح ٣٦٥ يومًا، وفى تاريخ

لاحق عندما اكتشف المصريون أن السنة ليست ٣٦٥ يومًا بالضبط بل تزيد ربع يوم، أضافوا إلى هذا الشهر الصغير يومًا سادسًا كل أربع سنوات.

وكان العام المصرى فى الأصل يبدأ مع ارتفاع مياه نهر النيل (قرابة منتصف شهر يوليو) وقد لاحظ المصريون القدماء مجىء فيضان النيل مع الظهور الدورى لنجم لامع يعرف باسم النجم الكلبى Sirius فقدسوه معتقدين أنه جالب الفيضان، وسمى المصريون أول يوم فى العام فاتحة السنة (وبت رنبت) وكان يومًا بهيجًا مليئًا بالاحتفالات العظيمة والأفراح الشعبية. وكانت هذه الاحتفالات تدور فى أساسها حول معنى النصر والتجديد، نصر أوزوريس باعتباره رمز النيل والخصوبة على الإله ست رمز الصحراء الملتهبة والحقول الجرداء، والأغنية المصرية التالية من العهد الفرعونى عن اليوم الأول للفيضان، تأخذنا إلى تلك الأيام السعيدة حيث احتفال أجدادنا بالعام الجديد:

افرحى أيتها الأرض
فقد أتى وقت الخير
يا جميع الأتقياء تعالوا وانظروا
المياه تصعد.. وليس لها انحسار!
النيل يحمل الفيضان العالى
والآلهة سعيدة وراضية القلب
الحياة تسرى فى ضحك
والكل فى انبهار.

لقد كان فيضان النيل- الذى اعتمد عليه رخاء المصريين ولا يزال حتى اليوم- محور اللاهوت المصرى والعقائد الشعبية، لذلك ينبغى أن نقف لنتأمل معنى كلمة النيروز وعلاقتها بتاريخنا القومى. فاللافت للنظر أن بعض الكُتاب يرددون القول بأن هذه الكلمة هى نفس الكلمة الفارسية نوروز وتعنى رأس السنة، على أننى أشك فى أن تكون هناك علاقة أصيلة بينهما، وسبب اعتراضى على الرأى القائل بأن هذه الكلمة مشتقة من الفارسية يقوم على عدة نقاط، الأولى -وكما أوضحنا- أن العيد له جذور تاريخية مصرية قديمة جداً ويرتبط بالنيل وعقائد المصريين منذ أقدم العصور. والنقطة الثانية هى أن الاحتلال الفارسى المتقطع الذى عانت منه مصر فى القرن السادس قبل الميلاد، وبدأ بعام ٥٢٥ ق م، عند هزيمة الفرعون بسماتيك على يد الغازى الفارسى قمبيز بن قورش والذى اتسم بالدموية من جانب المحتل، والمقاومة الباسلة من جانب المصريين، قد ترك أثراً سيئًا فى الضمير القومى مولداً كراهية سجلتها النصوص التاريخية.

من هنا يصبح من غير المعقول أن يأخذ المصريون فجأة وفى وقت متأخر جداً من تاريخهم الطويل مصطلحًا أجنبيًا فارسيًا ليطلقوه على عيد وطنى دينى له مثل هذه الدلالة والأهمية فى حياتهم القومية، لذا فالأقرب إلى الصحة أن يكون لهذا الاصطلاح (نيروز أو ناروز) جذر لغوى مصرى نقى يعبر عن المعنى الخاص بهذا اليوم القومى المقدس.

وفى اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) نجد عدة تعبيرات

قريبة جداً من الكلمة وتعبر بدقة عن هذا المعنى المهيب لهذا اليوم فى حياة وعقيدة المصرى القديم ومن بعده القبطى والمصرى بوجه عام على مر الأجيال، فالعبارة نور روج أو نوى روز؛ أى الفيضان المنعش قد تكون هى الأصل، كما أن هناك عبارات مصرية قديمة أخرى مشابهة مثل نوى روح ونوروز وتعنى على التوالى وقت الازدهار والمياه المنعشة.

هذا وقد ذهب الأنبا الدكتور باسيليوس (مطران القدس الراحل) إلى أن كلمة النيروز مشتقة من أصل مصرى، وقد استعارها الفرس خلال فترة احتلالهم لمصر، ونضيف إلى ما قاله الأنبا باسيليوس أن الفرس لم يعرفوا هذا الاسم قبل احتلالهم لمصر واتخذوا الاسم الذى يعبر عن رأس السنة المصرية لصفات عيد آخر هو عيد شم النسيم وبداية الربيع أى بداية السنة الفارسية الذى يتوافق مع بداية السنة المصرية غير الزراعية، أى عيد شمو أو شم النسيم، بينما النيروز المصرى يعبر عن عيد (آخت) أو الفيضان.

كما أن احتفاظ الأقباط المسيحيين بهذا التاريخ ثم صبغهم إياه بالطابع المسيحى عند اتخاذهم هذا العيد عيداً للشهداء واعتباره رأس أعيادهم يجعلنا نرجح أن يكون الاسم مصريًا فى الشكل والجوهر، فقصة النيروز القبطى المسيحى تبدأ بعام ٢٨٤ ميلادية وهى السنة التى اعتلى فيها الإمبراطور الطاغية (دقلديانوس) عرش الإمبراطورية الرومانية وكانت قد حدثت فى أيام حكمه أشنع الاضطهادات التى راح ضحيتها مئات الآلاف من المسيحيين خاصة من أقباط مصر. فلما أراد الأجداد أن يخلدوا ذكرى شهدائهم

الأبرار، اعتبروا سنة اعتلاء هذا الطاغية العرش بداية لتاريخهم، وهكذا بدأ العام القبطى الأول، وهكذا أصبح العيد عند الأقباط عيد ازدهار الإيمان وازدهار الشهادة والشهداء الذين ارتوت بدمائهم الأرض.

وإن كان الفيضان هنا من نوع جديد، إلا أنه وحسبما سجل تاريخ الاضطهاد الرومانى، وعبر بحق إدوارد كلين عن اتخاذ الأقباط هذا التاريخ قائلاً: الواقع أن الموت البطولى لهؤلاء الشهداء لم يُمجد فقط بتذكار شهادتهم خلال التقويم المصرى، بل بمنحهم رتبة شرف عالية فى الكنيسة، فهم فى الترتيب الكنسى يحتلون رتبة عالية تلى تلك التى للرسل مباشرة، وتسبق مكانة القديسين العظماء.

وهنا يتضح أن النيروز المصرى أقدم بكثير من النيروز الفارسى فهو عيد مصرى قديم، أول من احتفل به الملك مينا الذى جلس على عرش مصر قبل مجىء السيد المسيح بأربعة آلاف عام واحتفظ المصريون بهذا واحتفلوا به احتفالات عظيمة حتى بعد دخول العرب مصر، بل إن العرب شاركوا فى الاحتفال بهذا العيد، فهو عيد مصرى قومى خالص يختلف شكلاً ومضموناً عن العيد الفارسى الذين اتخذوه وعرفوه عن طريق مصر إبان احتلالهم لمصر، وهذا ما جعل جيمس هنرى برستيد يقول فى كتابه فجر الضمير: «لا يمكن أن يكون عيد النيروز فارسيًا لأنه كان موجوداً قبل دخول الفرس بأجيال عديدة، فهو عيد قومى محض للزراعة ولا يمكن أن يكون إلا لقوم يعيشون على الأرض الخضراء ويتغنون بحبوبها وضرعها ويمجدون شمسها وكواكبها».

ومن هنا يتضح الفرق بين النيروز المصرى والنيروز الفارسى والذى كُتب عنه خطأ فى كثير من المراجع والكتب والأبحاث. ولو تأمل هؤلاء الباحثون الذين قاموا بهذا الخلط قليلاً لأدركوا الحقيقة. ويتضح من خلال ما قدمناه أن الحضارات القديمة قد تأثرت بالحضارة المصرية القديمة واتخذت لنفسها عيداً يشبه عيد المصريين (شمو) عيد الحصاد، بل كانت الأساطير المصرية للخلق لب وجوهر عقائد هذه الحضارات للاحتفال فى بعث الحياة الذى يظهر على الكائنات من نبات وحيوان بل وعلى الإنسان نفسه، وهكذا سنجد أيضًا دخول هذه العادات المصرية وتوغلها داخل الأديان السماوية نفسها وهذا ما سنعيش بين سطوره فى الفصل القادم.

الفصل السادس
شم النسيم.. والديانات السماوية

أولاً: اليهودية :

نقل اليهود عن المصريين عيد شم النسيم عندما خرجوا من مصر في عهد موسى عليه السلام. وقد اتفق يوم خروجهم مع احتفال المصريين بعيدهم، وقد أشارت كثير من المراجع التاريخية إلى أن اليهود اختاروا ذلك اليوم بالذات للخروج حتى لا يلفتوا نظر المصريين بخروجهم- لانشغالهم بالعيد- مع ما حملوه معهم من ذهب المصريين وثرواتهم، واحتفل اليهود بالعيد بعد خروجهم ونجاتهم وأطلقوا عليه اسم عيد الفصح، والفصح كلمة عبرية بمعنى الخروج والعبور، كما اعتبروا ذلك اليوم، يوم بدء الخلق عند المصريين، رأساً لسنتهم الدينية العبرية تيمنًا بنجاتهم أو بدء حياتهم الجديدة، وهكذا اتفق عيد الفصح العبرى وعيد شمو أو عيد الخلق المصرى.

وقد تم إيضاح هذا الفصح بتفاصيله فى سفر الخروج (وكلم الرب موسى وهارون فى أرض مصر قائلاً: هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور، هو لكم أول شهور السنة)، وطلب موسى وهارون عليهما السلام من بنى إسرائيل أن يذبح كل فرد له ولأهل بيته كبشاً أو جدياً صحيحًا يكون ابن سنة، يذبح فى مساء اليوم الرابع عشر،

ويرش دمه على العتبة العليا فى البيوت التى تم فيها الذبح، ويؤكل اللحم مشويًا ولا يطبخ بالماء أو يؤكل نيئًا، بشرط أن يكون مشويًا فى النار، رأسه مع أكارعه وجوفه وأن يبقوا من هذا اللحم شيئًا إلى الصباح، فإذا تبقى منه شىء قاموا بحرقه، وأن يأكلوا وحقائبهم مشدودة وهم مرتدون الأحذية، وتكون عُصِيُّهم فى أيديهم وأن يأكلوا بعجلة؛ لأن هذا هو فصح الرب، ثم نرى كيف فعل الله بأرض مصر حسبما ورد فى سفر الخروج بأن رب العبرانيين ضرب كل بكر فى أرض مصر من الناس والبهائم ووضع أحكامًا بكل آلهة المصريين، ثم يقول سفر الخروج: حين أضرب أرض مصر ويكون لكم هذا اليوم تذكارًا فتجعلونه عيدًا للرب فى أجيالكم، وتعبدونه فريضة أبدية. وفى موضع آخر من سفر الخروج: حين يقول لكم أولادكم ما هذه الخدمة لكم، تقولون فى ذبحه فصح للرب الذى عبر عن بيوت بنى إسرائيل فى مصر لما ضرب المصريين وخلص بيوتنا، فخر الشعب وسجدوا.

ويعلق الكاتب الكبير عباس محمود العقاد فى كتابه يوميات، الجزء الأول، على هذا قائلاً: «وها هى الصهيونية تبرز لنا مرة أخرى فى هذا السجل القديم الذى تتطوع هى لنشره على هواها، ولو أنها عادت إليه على هوى الصدق لسترته تحت التراب وألقت عليه حجابًا فوق حجاب تحت حجاب. تنشر الصهيونية حديث شم النسيم فى كل عام باسم عيد الخروج لتحسبه تذكارًا ليوم الحرية ويوم النجاة بعبادة الحق والتوحيد عن معتقل الأسر فى هذا الوادى المحبوب، ولم يكن قط مكروهًا عند آباء صهيون، وإن أحبوه لفوله وبصله ولبنه

وعسله ولم يحبوه لأهله ولا للحق ولا للدين، ما كان لبنى إسرائيل من فضل فى يوم الخروج أن ذكروا الحرية وعبادة التوحيد، وإنما الفضل فيه لموسى عليه السلام، ولمن علموه عِلْمَه الحق قبل بعثه إلى قومه، فاهتدى بما تعلمه فى صباه واهتدى بما أعده الله من هدى الفهم وهدى الإيمان .

تاريخ بنى إسرائيل كله فى وادى النيل يقول: إن هؤلاء العبيد الأذلاء لم يفكروا قط فى الحرية ولم يصبروا قط على عبادة التوحيد، ولا يزالون بعد عصيان الداعين لهم إلى الخروج حقبة بعد حقبة يخرجون أخيراً فيذكرون عبادة العجل وعبادة البعل وموائد الضأن والفطير وقصاع العدس والفول. قبل خروجهم مع موسى عليه السلام دعاهم رهط إلى الخروج فسخروا منه وأهانوه، وبعد ذلك بثلاثين سنة دعاهم موسى عليه السلام فشتموه وهددوه، وشهد عليهم سفر الخروج بما فعلوا وقالوا، حيث تكلم آمام الرب قائلاً: هم ذاكم بنو إسرائيل لم يسمعوا فكيف يسمعنى فرعون ؟

ولم يكن شعب مصر مسيئًا إليهم لأنهم كانوا يستجدونه ويستعيرون منه فلا يبخل بشىء طلبوه، ويشهد سفر الخروج أنهم طلبوا من المصريين أمتعة من فضة وذهب وثياب، فأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين».

ويستكمل العقاد قائلاً: «من أين نتحدث إليهم عن ملفات شم النسيم الأول والأخير ؟ عن صفحات علمائهم نروى ما نقول، وإنه لمن مفاخرهم التى يذكرونها ولا ينسونها كلما استكثروا من أسماء الأعلام، أسماء فرويد ومايروسيلينا وآخرين مذكورين فى كتاب

موسى وديانة التوحيد. هؤلاء هم الذين يقولون إن موسى عليه السلام تلقى اسمه من لغة وادى النيل؛ لأن بنت فرعون التى سمته باسمه تعرف موسى بمعنى الطفل ولا تعرف العبرية فتسميه بكلمة من كلماتها، تعرف أسماء بنحموس ورعموس وأمنموس وغيرها من الأسماء والألقاب فى إطلاقها على طلاب الحكمة العالية فى معاهد منف وطيبة وقصور الملوك والملكات. إنه لفضل موسى- عليه السلام- وإنه لفضل الله على موسى بما هداه إلى الحكمة وهداه إلى الرسالة.

أما أسلاف صهيون الأقدمون فما طلبوا حرية، ولا ابتغوا وجه الله ولا كرهوا عبادة العجل، وقد عادوا إليها قبل أن يعبروا الحدود إلى الوطن الموعود، وأما شعب مصر فلم يكن جزاء الخارجين من بلاده إلا أنهم سرقوه وأخذوا فضته وذهبه وثيابه وآنيته وما استطاعوا أن يحملوه ويحملهم من مطية أو ركاب، ولم يكن من عمله معهم إلا أنه أكرمهم وائتمنهم فسلبوه.

على فكرة، بعد ثلاثين قرنًا لم تسقط المدة القانونية ... لأنكم تقررون مستنداتكم فى أرض الميعاد من ذلك التاريخ ... كم يحمل ستمائة ألف خارج وخارجة من الذهب والفضة واللباس والآنية إذا أخذ كل منهم خاتمًا أو ما يساوى قيمته بالدرهم والدينار، وكم فوائد المبلغ بالحساب الذى لا يجهلونه مضاعفًا من تلك السنة. الوثيقة بخط اليد محفوظة.. والدعوى مرفوعة.. والحساب يجمع.. وشم النسيم سيعود ويعود، فاحسبوها من الآن.. واحسبوه إعلانًا بالدين القديم، لا ينساه الديان ولا يخطئ فيه بن جوريون ولا ديان».

ويصف القرآن الكريم هذا اليوم (قال موعدكم يوم الزينة، وأن يحشر الناس ضحى) سورة طه، آية ٥٩ . وقال المولى عز وجل: (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حُملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى) سورة طه آية ٨٧. ولكن يبقى سؤال ملح، وهو: كيف يتخذ العبرانيون الرعاة عيداً زراعيًا للمصريين عيداً لهم ورأسًا لسنتهم رغم أنهم يعشقون الرعى ويفضلونه على العمل الزراعى، وذلك حسب كتابهم المقدس .ففى الفصل السابع من سفر التكوين: (وعرف آدم حواء فحملت و ولدت قايين، فقالت رزقت رجلاً من عند الرب، ثم عادت فولدت أخاه هابيل، فكان هابيل راعيًا وقايين يحرث الأرض، وكان بعد أيام أن قايين قدم من ثمر الأرض تقدمة للرب، وقدم هابيل أيضًا شيئًا من أبكار غنمه ومن سمانها ، فنظر الرب إلى هابيل وتقدمته، وإلى قايين وتقدمته لم ينظر.) سفر التكوين، الفصل السابع، العهد القديم.والإجابة على السؤال الذى طرحناه أن مخيلة الراعى تعشق الزراعة ولكنها تمجد الرعى: لأنه مصدر رزقها الوحيد، والدليل على ذلك ما جاء فى العهد القديم (جنة الرب كأرض مصر) لأن أرض مصر زراعية والشعوب الزراعية شعوب مستقرة ليست فى حاجة إلى غزو الآخر بل هى دائمًا هدف من الآخرين لسلب خيراتها ، ولذلك كرهت مصر فكرة التصحر والرعوية وأخذت إله الشر ست رمزًا لهم، بل كرهوا الجمل نفسه؛ لأنه رمز التصحر، وإن كل الشعوب الآسيوية الرعوية كانت تقف بالجمال على الحدود لتحمل القمح من مصر فى فترات المجاعة ومصر المستقرة كانت تمنحهم هذا القمح، ولم يسمح المصريون

بدخول الجمل؛ لأنه نذير شؤم، وحتى الآن نجد فى الأمثال الشعبية (يغور الجمل بما حمل) أما الراعى فيمجد الرعى؛ لأنه حرفته التى يعرفها، بينما وجدانه يتمنى أن يكون مزارعًا، فلذلك يتخذ لنفسه عيدًا زراعيًا عند المصريين ليصبح رأسًا لسنتهم، كما أخذ عيد القمح وأعيادًا أخرى كثيرة، بل إن الحلم الصهيونى فى أساسه حلم زراعى (من النيل إلى الفرات) ولا نجد فى الوثائق المصرية أثرًا عن دخول أو خروج بنى إسرائيل حتى الآن.

ثانياً: المسيحية:

انتقل عيد الفصح بعد ذلك إلى المسيحية؛ لأنه وافق مصادفة عيد القيامة، ولما دخلت المسيحية مصر، أصبح عيدهم يلازم عيد المصريين القدماء، فلذلك اختاروا أن يقع فى اليوم التالى، ولذلك يقع شم النسيم دائمًا يوم الاثنين أى اليوم التالى لعيد الفصح أو عيد القيامة، ويقع شم النسيم وسط مجموعة من الأعياد القبطية المسيحية والتى يحتفل بها كثير من المسلمين أيضًا فهو يقع مع أربعاء أيوب وخميس العهد والجمعة الطيبة وسبت النور وعيد القيامة.

وفى أربعاء أيوب يستحم الناس بالماء البارد ،ويدلكون أنفسهم بالنبات المسمى برعرع أيوب ابتغاء الصحة والعافية، حيث إن هناك أسطورة تقول إن أيوب فعل ذلك ليسترد صحته، وهذا النبات يسميه العامة رعرع أو (رعريع) أيوب وهو تحريف من كلمة عرعر المستخدمة فى قراطيس الطب العربية القديمة، وهو نبات مصرى قديم عثر العلماء على حبه بين الهدايا الجنائزية فى مقابر طيبة والدير البحرى، وتوجد عينات منه فى متحف برلين. وفى اعتقادنا أن فكرة الاستحمام بالنباتات

واستخدام زيوت النبات فى التدليك عادة مصرية قديمة ، ولا يزال الاحتفال بأربعاء أيوب يقام فى العريش المصرية، ويتم الاستحمام فى بحر العريش اعتقاداً بأنه يعيد الصحة والنقاء للبدن.

و فى يوم الخميس يتم أكل الكشك والفول النابت والعدس والأرز والبصل ويطلق عليه العامة خميس العدس بدلاً من خميس العهد، وتستكمل نفس العادات يوم الجمعة التى تسمى (الجمعة الطيبة) أما يوم السبت فتظهر عادة الاكتحال للرجال والنساء و الأطفال ويسمى سبت النور اعتقاداً فى أن نوراً خارقًا للعادة ظهر أثناء الاحتفال الذى أقيم حينذاك عند القبر المقدس فى أورشليم وهذا متطابق مع الفكرة المصرية القديمة، عدم النظر إلى الشمس مباشرة وإنما من ينظر إليها عند الغروب فى ليلة الرؤية يؤخذ بصره لأن نوراً عظيمًا يظهر ويأخذ البصر، وأن المصرى يكتحل قبل ميلاد المسيح نفسه وذلك لمجىء العيد مع رياح الخماسين والإصابة بالرمد الربيعى فالاكتحال لسبب طبى محض .

المهم يوم الأحد يكون عيد القيامة والاثنين هو يوم شم النسيم الذى يخرج فيه الجميع- مسيحيين ومسلمين- محتفلين على طريقة أجدادهم المصريين القدماء بكسر البصل فى الصباح و شمه، ويبكرون فى الذهاب إلى الحدائق والحقول راكبين القوارب النيلية، آكلين البيض الملون والفسيخ والبصل الأخضر والملانة.... فهو عيد كل المصريين والزرع الذى احتفل به أجدادهم قبل اعتناقهم للديانات بآلاف السنين ولا يزال يعيش فى وجدانهم بل تجاوز الاحتفال وأصبحت عادة تشارك فى احتفالات أخرى.

القبطى	الميلادى	العبرى
توت	سبتمبر	تشرى
بابة	أكتوبر	مرحشون
هاتور	نوفمبر	كسدو
كيهك	ديسمبر	طنين
طوبة	يناير	شباط
أمشير	فبراير	آذار أول
برمهات	مارس	آذار ثان
برمودة	أبريل	نيسان
بشنس	مايو	سيران
بؤونة	يونيه	أب
أبيب	يوليو	تموز
مسرى	أغسطس	أيلول

جدول رقم (٢)

الجدول يوضح التقويم القبطى والميلادى والعبرى، مع ملاحظة أن الشهور القبطية تجمع بين شهرين من الشهور الميلادية، فعلى سبيل المثال (توت) جزء من (سبتمبر + أيلول) وبابة جزء من (أكتوبر +نوفمبر) وهكذا.

ثالثاً: شم النسيم ورمضان، قراءة مقارنة:

إذا كان شم النسيم هو الربيع المادى للمصريين المتمثل فى الطبيعة المادية، فإن شهر رمضان هو ربيعهم الوجدانى والروحانى، فلذلك هناك تشابهات بينهما، منها ما جاء بالمصادفة ومنها ما عبر عنه اللاشعور الجمعى للمصريين نلخصها على النحو التالى:

١- كل من شم النسيم ورمضان يبدأ بليلة الرؤية وما يتضمنها من موكب الرؤية وظهورها، ولكن رؤية شم النسيم رؤية شمسية ورؤية رمضان رؤية قمرية .

٢- لكل من شم النسيم ورمضان ليلة الأمنيات أو ليلة القدر، كان يكتبها المصرى على البيض فى صورة تمائم تحفظهم وتحقق أمانيهم، وليلة القدر هى الليلة الفردية فى العشر الأواخر من شهر رمضان، يسهر فيها المسلمون فى الدعاء وقراءة القرآن الكريم وهى الليلة التى أنزل فيها القرآن وهى خير من ألف شهر أى ما يعادل ٨٣ سنة و ٤ شهور .

٣- اعتبار كل منهما إنساناً يولد وتتم فرحة استقباله والاحتفال به، ثم يموت ليظهر لنا فى العام الجديد ونودعه، وعبر المصريون عن الحصاد بقصة الخلق الآزورية التى أعطوا صفاتها لشهر رمضان ونجد فى ذلك أغانى الأطفال :

يا رمضان يا صحن نحاس
يا داير فى بلاد الناس
سقنا عليك أبو العباس
تبات عندنا الليله دى.

٤ - اعتبار كل منهما سجنًا وقيدًا للأرواح الشريرة، ولذلك يعلقون البصل لطرد هذه الأرواح الشريرة فى شم النسيم واعتبروا رمضان كذلك حتى فى غناء الأطفال.

يا رمضان يا عود كبريت

يا مقيد كل العفاريت

٥ - لكل منهما أطعمته الخاصة مثل البيض والفسيخ والبصل الأخضر والخس والملانة لشم النسيم، والكنافة والقطايف والمكسرات وبلح الشام والتمر لرمضان.

٦ - يعد الفسيخ عاملاً مشتركًا وكذلك قائمة أطعمة شم النسيم، حيث يتم أكلها فى عيد الفطر المبارك.

٧ - لكل منهما ثقافة مادية مرتبطة بالزينة، فزينة شم النسيم وتعليق البصل على الأبواب استبدلت بتعليق فانوس رمضان، أما تعليق عقود الياسمين فى الصدر والاكتحال وارتداء الملابس الجديدة فهى عوامل مشتركة.

٨ - يعد الكحك عاملاً مشتركًا حيث إن فكرة كحك العيد اخترا ع مصرى فى الأساس.

٩ - الذهاب إلى المتنزهات والحدائق العامة والحقول وركوب القوارب النيلية فى جماعات عوامل مشتركة بين العيدين.

١٠ - التزاور أيضًا عامل مشترك، حيث كان الناس يذهبون لزيارة بعضهم البعض فى مساء شم النسيم ويفعلون ذلك فى رمضان، وفكرة الونسة أو المضيفة فكرة مصرية قديمة جدًا لدرجة أن كلمة مصطبة كلمة هيروغليفية.

١١ – العيدية فكرة تجمع بين الاحتفالين.

١٢ – الملابس البيضاء فى ليلة الرؤية لشم النسيم وفى وقفة عيد الفطر.

١٣ – الاستحمام وتنظيف الأبدان بالماء الساخن ونظافة الجلد فى شم النسيم خوفًا من الشمامة، ويطلق عليها فى رمضان (حُمَّاية العيد).

١٤ – سعف النخيل عامل مشترك فى كلا العيدين، حيث يصنع منه أشكال متعددة من الخوص والسعف فى شم النسيم، ويوضع منه على القبور فى عيد الفطر.

١٥ – تبادل الأطباق المختلفة للأطعمة بين الجيران، وهذه عادة تمارس فى جميع المناسبات.

رابعًا: ويبقى تعليق:

رغم هذا العرض السابق فلا يزال هناك من يدعى بأن شم النسيم عيد يهودى، ويخلقون قصصًا لا أساس لها من الصحة ويقولون إنه عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم قال اليهود (لقد شممنا نفسنا) فلذلك يسمى بشم النسيم، وينبغى على المسلمين عدم الاحتفال به، وهذا الكلام هراء أطلقه أُناس يريدون فصل مسلمى مصر عن جذورهم الوطنية المتمثلة فى أرض مصر كوطن للجميع مسلمين ومسيحيين، وأن هذا العيد ليس مرتبطًا بعقيدة ولكنه عيد قومى لكل المصريين عاش قبل مجىء الدعوات السماوية وعاش فى ظل هذه الدعوات قرونًا وسيعيش فى اعتقادنا ما دامت هناك مصر ومصريون، لأنه أصبح عيدًا عالميًا، فهو عيد لبنى الإنسان لا لأبناء

دين من الأديان ولا لوطن من الأوطان، لأنه عيد الحصاد وعيد الأرزاق والثمرات، فكل مُحتَفِل بالربيع فى أوانه هو محتفل بصورة من صور شم النسيم، وإن ظهرت كل صورة باسم غير هذا الاسم، ولذلك ينبغى على أبناء مصر الحفاظ على هذا العيد وتنميته، ويظل عطلة رسمية لأن العالم أجمع يحتفل بمصر عندما يحتفل بشم النسيم، لأن هذا الاختراع المصرى العظيم كان سباقًا للاحتفال بتجدد الحياة؛ لأننا شعب يعشق الحياة والنماء والبعث، لم نختلف مع الآخر على أساس من العنصرية والدين والجنس واللون، فالتسامح طبيعة مصرية، وهذا العيد هو تعبير عن التسامح ومصالحة الطبيعة، وبدلاً من أن يهاجم بعضنا الاحتفال بهذا اليوم، علينا أن نسعى جميعًا للاحتفال به فى العام القادم ليكون عيداً حقيقيًا للحصاد وذلك بزيادة الرقعة الزراعية، فمصر هى بلد الزراعة منذ فجر التاريخ، و هى مخزن الأرض و سلة غلال العالم القديم، لذا ينبغى أن نساهم فى مصر الحصاد.. مصر المستقبل ... لأن هذه الأفكار الخاطئة تخدم الصهيونية وتعطى لأبناء صهيون حقًا تاريخيًا فى مصر بأنهم أصحاب الاحتفال وليسوا من سلبوا وسرقوا من مصر الذهب والفضة والاحتفال أيضًا.

خامساً: إنه حقًا عيد عالمى:

لم تتفق الحضارات والشعوب قديمًا وحديثًا على يوم يبدأون به سنتهم مثلما اتفقوا على يوم شم النسيم المصرى الذى اتخذه المصريون رأسًا لسنتهم المدنية. فالفرس والعجم كانت سنتهم شمسية تبدأ بالاعتدال الربيعى كالمصريين، تبدأ بشهر (أفرودين

ماه) ويعرف بالنيروز- كما أوضحنا من قبل- وكان تبجيلاً لهرمز إله النور الذى كانوا يعبدونه فى صورة الشمس والنار، وما هرمز الفارسى إلا رع المصرى مع الفارق أن المصريين لم يقدسوا النار فى أية فترة من فتراتهم التاريخية. وكذلك السنة البابلية القديمة تبدأ بالربيع، وتبدأ السنة الهندية والصينية بالاعتدال الربيعى، فكان أهل الهند والصين يقومون فى بدء العام بمظاهرات شائقة، حيث يخرج ملك الهند راكبًا على فيل أبيض فى موكب عظيم يتقدمه الجند والأمراء، وكذلك ابن ماء السماء كان يسير برونق، وكلاهما يدخل هيكل آلهته لشكرها، ويقدم لها الذبائح لاستلطافها، ثم يهبون للعامة من عطاياهم وتنار المدينة ليلاً وتتشح بأبهى الأقمشة والحلى نهارًا وتصدح آلات الطرب وتطلق الفراقيع النارية ! .

وكان الفينيقيون يحتفلون بعيد أدونيس ويزينون سواحلهم وسفنهم ويضحون بضحاياهم، وكذلك كانت السنة الرومانية فى أول عهد رومية تبدأ بشهر آزار مارس مع حلول الاعتدال الربيعى، وكانوا يقيمون احتفالات فى غاية من البهرجة، ويقدمون هدايا من الرطب والتين والعسل فى أطباق من الذهب يضيفون إليها قطعة من النقود الذهبية والفضية، كما يتهادون بالخزف ويكتبون عليه (عام ميمون وسنة ميمونة)، وتبدأ السنة العبرية كذلك بعيد الفصح أو يوم خروجهم من مصر، فى هذا اليوم الذى وصفته الكتب السماوية بأنه يوم الزينة. والمملكة الفرنسية كانت تبدأ سنتها فى فترة من فتراتها بعيد الفصح فى آزار مارس مع بداية الربيع، وكذلك كانت إسبانيا وبلجيكا وهولندا ودولة البندقية وأماكن كثيرة من العالم.

فشعوب ودول كثيرة من العالم فى الشرق والغرب والشمال والجنوب اتخذوا من هذا اليوم بداية لسنتهم فى فترة من الزمان، وبعد اتخاذ التقويم الميلادى وانتشاره فى معظم أنحاء العالم، لم تترك الشعوب عيدها برأس سنتهم القديمة واحتفلوا بهذا اليوم احتفالاً خاصًا ببداية فصل الحصاد المصرى الذى تطلق عليه الشعوب الأخرى مسمى الربيع، فأصبح هذا اليوم عيدًا عالميًا يلون فيه الجميع البيض ويطلقون عليه بيضة الشرق، ويلبسون أزهى الملابس، وتتعطل الحياة والأعمال فى جميع دول العالم احتفالاً بعيد الحياة، عيد الحصاد المصرى.

الفصل السابع
المصرى يغنى للحصاد لا للربيع

لماذا لم يغن المصرى للربيع فى أغانيه الشعبية ؟ ولماذا لم نجد فى الأغانى الرسمية الدارجة سوى أغنيتين باسم الربيع؛ واحدة لفريد الأطرش والثانية لصلاح جاهين وسعاد حسنى ؟ !. الحقيقة أن الغناء لما يسمى بالربيع مسألة ليست فى وجدان الشعب المصرى، بينما الحصاد هو الأساس عنده، فنجد أن أكثر من نصف الغناء الشعبى غير المعروف المؤلف هو غناء للحصاد والعمل الزراعى، حتى لو تضمنت هذه الأغنيات موضوعات حياتية أخرى، و هى ظاهرة ليست خاصة بالمصريين المحدثين، بل هى أغانٍ متوارثة نلمح جذورها فى أغانى الحصاد عند المصرى القديم، فكلمة (هيلا هوب) التى تبدأ بها أغانى العمل والحصاد؛ كلمة مصرية قديمة بمعنى هيا للعمل، هوب بمعنى العمل، فالمصرى القديم يمسك بتلابيب المصرى الحديث وخاصة فيما يتعلق بالزراعة والعمل والحياة اليومية، فنجد نفس ألفاظ أدوات العمل الزراعى القديمة يستخدمها الفلاح المصرى حتى اليوم (الفأس والمحراث والبلطة والمنجل والشادوف والطنبور) ويطلق على الأرض الجافة العطشى اسم (الشراقى) وغيرها من الكلمات سنورده فى نهاية الفصل فى كشاف خاص بالكلمات المصرية القديمة (الهيروغليفية والقبطية) والمستخدمة حتى الآن.

ولكن المهم أن مفهوم الربيع ليس فى وجدان المصرى؛ لأن فصل الربيع ليس من الفصول الممتعة، بل هو فصل رياح الخماسين والرمد الربيعى،ولا يوجد فى مصر ربيع بالمعنى الحقيقى، لأنها بلد ذات ثلاثة فصول؛ كما أوضح القدماء. بينما يعيش مفهوم الحصاد فى وجدان المصرى منذ فجر التاريخ، فيخرج كل همومه فى عملية الحصاد والعمل الجماعى، فتأتى أغانى الحصاد فى أحيان كثيرة أشبه بأغانى العديد، ونلمحها فى هذه الأغنية من أغانى الحصاد فى مصر القديمة والتى تقول كلماتها:

ادرسوا ادرسوا يا أبقار
ادرسوا ادرسوا
التبن طعامكم ،والقمح لأسيادكم
لا تجهدوا قلوبكم
فالدنيا حلوة ولطيفة.

هذا النص يذكرنى بالنص الذى يغنى فى الحصاد فى الصعيد ويقول:

يا ساقية يام دارة
وَرَدُم عليكى العدارة ..
والعجل قال دوروني
للزين كحيل العيونى
وان جا العفش ما تدوروني
وارخوا عليه الستارة.

ونفس النص يغنى فى الدلتا وأرياف السواحل بطريقة ومنطوق

ولهجة مختلفين فيقال:

يا ساقية يا ام تارة
فاتوش عليكى العذارى
يا ساقية يا جديدة
الدنيا حلوة وسعيدة
الدنيا حلوه ومرة
والمرجوع كله ع الله
يا رايح قول للماشى
الدنيا ما دايماشى.

ويوجد نص مصرى قديم به هذه الروح من النوح فى أغانى الحصاد:

لقد امتلأت الشوُن وفاضت
وتكوم الحصاد أمام أبوابكم
المراكب محملة ومشحونة
والقمح فاض هنا وهناك
وما زالوا رغم هذا يسوقوننا
هل قلوبنا من حديد ؟ !

فأغنية الحصاد أغنية مفتوحة تشمل جوانب الحياة كافة للمزارع المصرى، فنجده يغنى للفاكهة والخضر و محاصيله كافة، وفى معظم هذه الأغانى يربط بين الزرع والحب والغرام، ففى النص الصعيدى التالى يقول:

مسيك بالخير يا مشمش طرى مبلول

تمشى تهز الفلك تسبى بنات الحور
وحياة من زيَّن الرقبة وشرَّعها
أنا خاطرى ف وصالك مستحى ما أقول
مسيكى بالخير يا نداغ فى لبانك
يا مشمش الواح (الواحات) تتاكل بعيدانك
واصبر علىَّ لما تطلع القمرة
وتنام أهلى على الباب واسمعلك
وأسمع حديتك واتولع بنيرانك.

فحالة الحب والغرام وربطها بالحصاد شىء ليس بالغريب، بل إن موسم الزواج عند المصريين ارتبط بالحصاد، حيث يتم الزواج فى الريف بعد الحصاد وبيع المحاصيل والطفرة الاقتصادية التى تدفع عاهل الأسرة لزواج أبنائه، لذا نجد أغانى الفرح قد ارتبطت هى الأخرى بالمحاصيل والزرع، فتقول هذه الأغنية الصعيدية:

على فرش المعجبانى اتدألج (تقلب) اللامون (الليمون)
والشمس لسه ما طلعت ياللافندى قوم
ياللى على كرسى خدك يصلح المغبون
على فرش المعجبانى اتدألج الرُمان
والشمس لسه ما طلعت ياللافندى نام
ياللى على كرسى خدك يصلح الزعلان.

ولم ترتبط أغانى الأفراح بالمحاصيل الزراعية فى الصعيد فقط، بل فى الريف المصرى (بحرى) فهذا النص من الشرقية يقول:

ع البحر بطيخ مشقق

أحمر ولبه يزينه
لا أنا باغنى للمشقق
ولا باغنى لبايعينه
أنا باغنى لعريسنا
رايح لعروسته الله يزينه.

فالمحصول قد يكون رمزًا للعريس أو العروسة أو عملية الجماع، بل إن أُغنية القصب التى تغنى بأكثر من مائة طريقة ومنطوق نلمح فيها هذا الأسلوب الرمزى الذى يعلن فيه الإبداع الشعبى إخفاء ما يعلنه وإبداء ما يخفيه:

المجموعة: يالقصب يالقصب.. والقصب عايز ميه يا
يابو اللبايش يا قصب.. عندنا فرح واتنصب
المؤدى: يا سلام عليكى
المجموعة: يا بيضة
المؤدى: حلوة عينيكى
المجموعة: يا بيضة
المؤدى: لما العريس يطل.. بعود ريحان وفل
يدخل يديكى جنيه.. يخرج يديكى جنيه
عاوجه له البوريه (غطاء الرأس)
فى الأوضة البحرية
المجموعة: يالقصب يالقصب.. والقصّب عايز ميه يا
يابو اللبايش يا قصب.. عندنا فرح واتنصب
المؤدى: يا سلام عليكى

المجموعة: يا سمرا

المؤدى: مديله إيديكى

المجموعة: يا سمرا

المؤدى: لما العريس يخش.. يا منوره له الوش

يدخل يديكى جنيه ... يخرج يديكى جنيه

عاوجه له البوريه.. فى الأوضة الوسطانية.

المجموعة: يالقصب يالقصب.. والقصب عايز ميه يا

يابو اللبايش يا قصب.. عندنا فرح واتنصب

المؤدى: يا سلام عليكى

المجموعة: الليلة دى

المؤدى: محلاكى

المجموعة: الساعة دى

المؤدى: لما العريس يبص.. ويعد فلوس ويرص

يدخل يديكى جنيه ... يخرج يديكى جنيه

عاوجه له البوريه.. فى الأوضة الجوانية .

والملاحظ أن تركيبة أغانى الحصاد تركيبة معقدة، بها النوح والشكوى والغناء للعمل نفسه والغناء للمحبوب، هذا لأن موسم الحصاد هو موسم تكاثر الكائنات كلها، فالإنسان يعبر عن البعد الغريزى فيه، وينمّى وينشط هذا الجزء رغم أن الغريزة عند الإنسان غير موسمية كبقية الكائنات، ولكن يبدو أن لحظة الذروة تكون فى موسم الحصاد، هذا رأى غير قاطع ويبقى السؤال: ما السر فى هذه التركيبة العجيبة لأغنية الحصاد والعمل الزراعى ؟ فى هذا النص

نلمح هذه التركيبة العجيبة:

يا رب يا فتاح يا عليم

افتح لنا الأبواب يا كريم

من تحت قدم الطور خلايا تحلى (تحل)

يا شايل العيَّان فوق الرحلى (ما يرتحل من الدواب)

يا عم ما أحلى النوم على العلالى

مع بنت بيضة خدها بيلالى

يا شايلة البلاص غطى إيديكى

وانا ما قتلنى إلا سواد عينيكى.

إذاً فالحصاد عند المصرى ليس حصاداً ماديًا فقط بل حصاداً ماديًا ومعنويًا، فالحصاد بشير الخير والرزق، والأنثى فى حياته كذلك أيضًا بشير الفرح والخير ومثمرة مثل الأرض، تهب له الأطفال الذين يكبرون ويساعدونه فى العمل عندما يصبح غير قادر عليه، بل إن المرأة أيضًا عامل إضافى له فى الحقل، يتمنى المرأة الحلوة فيتعمق فى وصفها بأوصاف تبدو فى الظاهر حسية، لكنها فى الحقيقة أوصاف جمالية كفنان يعبر فى لوحته عن مفاتن وجماليات الأنثى، بل إن معظم هذه الأغانى تغنيها النساء فى معظم الأحيان وتكون المؤديات من كبار السن، فنجد فى هذا النص الذى يغنى فى معظم قرى مصر:

المغنية: يا حلوة ضمى الغلة

المجموعة: يا حلوة ضمى الغلة

المغنية: عود على عود نتسلى

المجموعة: يا حلوة ضمى الغلة

المغنية: يابو العيال هاتلك شيال وتعالى نضم الغلة

المجموعة: يا حلوة ضمى الغلة

المغنية: ورينى شعرك ورينى.. تكونى قرعة بتغشينى

ترجعى تانى تقوليلى.. ما اعرفش أضم الغلة

المجموعة: يا حلوة ضمى الغلة

المغنية: ورينى عينيكى ورينى.. تكونى عورة بتغشينى

ترجعى تانى تقوليلى.. ما اعرفش أضم الغلة

المجموعة: يا حلوة ضمى الغلة

المغنية: ورينى رجلك ورينى.. تكونى عرجة تغشينى

ترجعى تانى تقوليلى.. ما اعرفش أضم الغلة

المجموعة: يا حلوة ضمى الغلة

المغنية: عود على عود نتسلى

المجموعة: يا حلوة ضمى الغلة

ليس الغزل فقط هو العنصر الوحيد فى أغانى الحصاد، بل إن الغناء الشعبى فى باقى المناسبات يبدأ غالبًا باستهلال لمحصول زراعى:

١ - يا برتقال أحمر وجديد بكرة الوقفة وبعده العيد

٢ - يا برتقال أحمر وصغير بكرة الوقفة وبعده الصغير

٣ - يا برتقال أحمر وكبير بكرة الوقفة وبعده الكبير.

هذا بالإضافة إلى أغانى المحاصيل، فلا يكاد يكون هناك محصول فى مصر لا توجد له أغان، فنجد النعناع فى أسوان وقنا

يوجد له العديد من الأغانى، والنعناع فى هذه المنطقة يسمى أحيانًا بالتفتة، فهو نعناع نافذ الرائحة بشكل كبير، ويختلف عن هذا النعناع الذى يزرع فى الوجه البحرى، بل إن نص (نعناع الجنينة) الذى يغنيه الجعافرة والنوبيون، يتكون من أكثر من عشرة آلاف بيت، وكان يغنى فى رحلة نيلية من أسوان إلى الإسكندرية، وكل شخص على المركب يغنى مقطعًا لا يعاد مرتين:

نعناع الجنينة المسقى فى حيضانه

شجر الموز طرح ضلل على عيدانه

قالت لى باريدك يا ولد عمى

تعالى دوق العسل سايل على فمى

قلت لها مهلك على دا انا حيلة أبوى وامى

قالت لى مهلك على دا انا ماتحمل الضمى.

وفى قنا يغنون أيضًا للنعناع ولا يريدون بيعه ويظهرون جماليات هذا المحصول وفوائده:

المؤدى: يا نعناع يا نعناع.. بازعل لما يبيعوك يا نعناع

المجموعة: يا نعناع يا نعناع.. بازعل لما يبيعوك يا نعناع

المؤدى: الورد لما يدبل بيرموه.

أما انت لما تنشف بيلموك

بازعل لما يبيعوك يا نعناع.

المجموعة: يا نعناع يا نعناع.. بازعل لما يبيعوك يا نعناع

ويبدو أن هناك أهمية لهذا المحصول فى الجنوب، فهو محصول رئيس من محاصيل الطب الشعبى فى هذه المناطق، وهناك أيضًا

غناء للمحاصيل ذات الطابع الاقتصادى مثل المانجو بالإسماعيلية :

المجموعة: منجه يا منجه.. عظيمة يا منجه

المؤدى: يا منجه الخولى بيزرعك قنايات

ياكلوا منك صبيان وبنات

المجموعة: منجه يا منجه.. عظيمة يا منجه

المؤدى: دى منجة هندى وسنارة

تعالى عندى يا سمارة

ودوقى شربات المنجة

المجموعة: منجه يا منجه.. عظيمة يا منجه

المؤدى: يا منجة الخولى بيزرعك اشجار

ياكلوا منك صغار وكبار

المجموعة: منجه يا منجه.. عظيمة يا منجه

المؤدى: دى منجة زبدة فى صينية

جايبها لحبيبى هدية

تاكلى وتتهنى يا رايحه الجنة

ريحة ونقاوة يا منجة آخر حلاوة

منجة يا منجة.. عظيمة يا منجة.

ومن هنا يتبين لِمَ لم يغن المصرى للربيع، لأن الأغنية المصرية الشعبية فى الأساس أغنية وظيفية، أى لها وظيفة تؤديها، ومفهوم الربيع مفهوم مثقف مغترب عن الجذور الثقافية المصرية، فالمصرى البسيط لم يقبل- على مدى تاريخه- الثقافات الوافدة عليه، لذلك فهو يخرج من منزله يوم شم النسيم ليس لاستقبال الهواء العليل ولا

ليستمتع بالجو المنعش، بل هو يخرج نتيجة موروثات مخزونة فى اللاشعور الجمعى، ليستقبل فصل الحصاد الذى استقبله من قبله أجداده منذ فجر التاريخ، فهذا هو فصل الخير، فصل حصاد عام كامل تتعلق عليه آمال الأسرة المصرية من تجديد أساس المنزل و«تحويش قرشين لجواز العيال»، أو لحج رب الأسرة أو ربة البيت، فهو الفصل الذى تعيش الأسرة من خيراته طوال العام .

لقد كان هذا الفصل هو بداية السنة المالية والسنة المدنية المصرية القديمة، فيه تسدد الديون، و فيه يدفع المصرى ثمن بذور العام القادم، وفيه يتم شراء مواش وأغنام جديدة، فالحياة الاقتصادية المصرية كانت تدور فيها دورة رأس المال مع بداية هذا الفصل، فتبدأ المرأة فى شراء خلاخيل وقطع ذهبية وملابس لها ولأسرتها، وظل هذا المفهوم فى الأسرة المصرية حتى وقت قريب جداً، قبل أن تضيق الرقعة الزراعية ويتحول الفلاح المصرى إلى مستهلك يشترى الخبز والبيض، بعد أن كان مصدر تصدير لهما، ورغم كل هذا فلا تزال هناك الكثير من الأسر المصرية التى تعتمد على الأرض كمصدر أساسى لدخلها، لذلك ما زال هذا الاحتفال بفصل الحصاد (شم النسيم) يعيش فى وجدان الشعب المصرى لما له من أسباب وظيفية، وهذا ما جعل المصرى حتى الآن متمسكاً بشهوره المصرية الشمسية ضارباً بها الأمثال، مستخدماً كثيراً من مفردات لغته القديمة فى حياته اليومية، وهذا ما أوجب أن نتعرف على نماذج من هذه الكلمات القديمة المستخدمة فى حياتنا اليومية ونقول «نماذج» لأن الجمع الكامل لهذه الكلمات فى حاجة إلى دراسة

مستقلة تستوعبها وتستوعب ما تشمله من تحليل، ولكن ما نقدمه مجرد نماذج؛ لنبين فكرة التواصل الحضارى بين قدماء المصريين وبسطاء المصريين المحدثين .

١ – كلمات مصرية قديمة مرتبطة بالطفولة والأسرة والعلاقات الاجتماعية والزراعية وغيرها :

إنبو: اشرب
ننوس: رضيع
مم: طعام
طبطب: يدلل – يربت
بح: انتهى
بخ: يخاف
تاتا: يمشى
سخه: ضربه (سخه علقة)
لظلظ: امتلأ
عبط: حضن
واوا: جرح
شلوت: لكزه بقدمه فى المؤخرة
نونو: طفل
بأبأه: ورم وانتفاخ
يتشطف: يغتسل
جلَّة: كرة (يلعب الجلة)

فوطة: قطعة من القماش للتنشيف

التو: الحذاء

ورور: طازج (ورور يا فجل)

بس: قطة

جاى: يصرخ

أحه: يعترض

هوسه: جنون

روشه: الافتخار بجنون

هيصة: ازدحام بفرح

شوبش: نداء ترحيب (شوبش يا حبايب)

أشبار: تعجب (أشبار عليك) أى عجبى منك

شيكابيكا: إنهاء العمل وأصبحت تقال فى أعمال النصب (شغل شيكا بيكا) خلص قوام

توت: اجتماع، وتوت حاوى أى اجتمع الحواة

أوباش: حَوش أو ملاعين البشر

نورى: محتال، وهى أصلاً بمعنى النسر الذى ينقض على فريسته فى لحظة، ويطلق على نوع من الغجر ينسبون أنفسهم لأصل أسطورى(يعتقد الغجر أنهم يلقبون بهذا اللقب لأنهم أول من استقبلوا دعوة النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى نور الفجر، ويعمل معظم نسائهم راقصات (غوازى) فى الأفراح ورجالهم «آلاتية» (عازفون محترفون)، ولكن اللفظ المصرى حسم المسألة .

طرشة: ثقيلة.. فنقول إيده طرشة أى ثقيلة

يشلب: يسيل (يشلب دم) أى يسيل بشدة

فهلوة: خداع وغش

مشوش: مبعثر فنقول مثلا أفكاره مشوشة أى غير مرتبة

طُرُبش: غبى

مهللاً: صائحًا

يهر: يخاف خوفًا شديدًا

دبوس: دبوس

الضبة: القفل أو نوع من الأقفال ونسمع (بالضبة والمفتاح) أى أغلق تمامًا

تلبشه: تشل حركته

الشبشبة: إثارة الشياطين

يشلشل: يهتز.. ويقول المثل (جاية العدوَّة تشلشل بطرحتها.. تبكى بحرقة من كتر فرحتها)

مكروش: مضطرب مثل مكروش النفس أى مضطرب النفس

التول: التفريق والتشتيت (عندما يقول شخص لآخر هتولك أى سوف أبعثرك، ونقول على الشخص غير المنظم أو المخدر إنه متوول)

شُبيك لُبيك: سموك، وغالبًا ما نشاهدها فى الأعمال الدرامية عندما يظهر المارد من فانوس علاء الدين

كانى ومانى: سمن وعسل، والمثل يقول (لا تقولى كانى ولا مانى ولا دكان الزلابانى)

توتو: جميل، ويستخدم حاليًا لدلع الأطفال

شوشو: عظيم، ويستخدم أيضًا لتدليل الأطفال ،

وحوى وحوى إيوحه: أسرع أسرع أيها القمر، فوحوى أى السرعة، وإيوحه أى القمر.

الحلة: هى الماعون أو الإناء الذى يطبخ فيه، وهى من الآنية التى عرفها المصرى على مر تاريخه.

الماجور: وهو ما يعجن فيه، وهو مصنوع من الفخار على شكل شبه منحرف مقلوب ضيق من أسفل متسع من أعلى.

المنجلة: آلة تستخدم لقطع الحشائش وهى عبارة عن سكين على شكل هلال أو قوس حاد.

الكلابة: تستخدم أيضًا فى الأعمال الزراعية للقص.

القلة: إناء فخارى يستخدم لحفظ وتبريد المياه للشرب.

الكاكولة: رداء رجال الدين، وهو اسم مستعار كان الرهبان فى مصر يتخذون منه رداء قبل دخول الإسلام، واستمر الاسم دلالة على ملابس الأزهريين الذين يرتدون الكاكولة المكونة من الجبة والقفطان، وكان يقال على فئة من المغنين المشايخ فى القرن التاسع عشر (المكوكاليين) أى الذين يرتدون الكاكولة، واستمرت هذه الفئة من المغنين حتى القرن العشرين مثل الشيخ سلامة حجازى والشيخ سيد درويش، ولا زال هذا الاسم مستخدمًا للدلالة على رداء الأزهريين أو رجال الدين.

شراقى: أى أرض جافة وعطشى.

مشبوح: مرهق وذابل.

فشوش: مرارة وحزن وانعدام قيمة (شىء ينتهى على فشوش)

بوش: خواء أو هباء (ذهب جهده بوش) أو (دي فيها بوش)

عك: تخريب، يقال (سيبك من العك) أى من التخريب أو اللخبطة

يزقزق: يشغل (يزقزق عقله أى يفكر) وتطلق أيضًا على صوت العصافير.

الرك: أى الرجحان (مثل الرك على النية)

شيش: شباك

حارة: حارة

تندة: مظلة

طوب: نفس المعنى الذى اتخذه العرب ويقال الطوب اللبن أى المصنوع من الطين، والطوب الأحمر أى الذى حرق فى النار حتى تحول إلى صخر واحمر لونه

اللفت: نوع من النباتات ذات الجذور التى تستخدم كغذاء وفاتح للشهية.

بُرش: رداء يفرش على الأرض ويستخدم للجلوس عليه فيقال (فلان نايم على البُرش)

بقوطي: ما يعبأ فيه الخضار والفاكهة قبل الوزن

مدمس: الفول المكمور

بصارة: الفول المطبوخ

سميط: خبز من دقيق فاخر

جُلّاش: الخبز الطيب، وكان يظن أنها كلمة أجنبية لكنها مصرية أصيلة

حُنَف: الكُنافة و هى كلمة مصرية حرفها اليونانيون إلى كُناف، و

فى عصر الدولة الأموية كان معاوية بن أبى سفيان يشعر بجوع شديد فى رمضان واشتكى إلى طبيبه محمد بن إسماعيل بن إيثال، فقال له إن اليونان يصنعون طعامًا اسمه الكُناف، لو أكلته يا مولاى فى السحر (أى السحور) سيجعلك تشعر بالشبع والارتياح، وكان أن قدمها معاوية بعد ذلك كهدايا إلى الشعب فى رمضان، ثم عرفت بالكنافة.

فول: فول

بصر: بصل

بِتَّاو: الخبز العادى، ولا يزال يستخدم بهذا الاسم فى الصعيد، وهو الاسم الذى انتقل إلى العبرية وسمى (بيتا) أى خبز.

بورى: سمك البورى، وهو من أنوا ع الأسماك المحببة للمصريين وكانوا يأكلونه طازجًا أو مملحًا (فسيخ)

بسارية: سمك صغير

حلوم: جبن.. ويقال (جبن حلوم)

أيسون: شراب الينسون المعروف، وينطق فى الصعيد بنفس النطق المصرى القديم (أيسون)

المريِسة: نوع من المشروبات

يا ليلى: إنى مبتهج ومسرور، ويقول المغنى يا ليلى يا عينى أى إنى مبتهج ومسرور بكم يا أغلى وأعز من عينى.. هل تسمعوننى ؟ فيقول الحضور: آه بمعنى الموافقة وليس التوجع والألم.

أردب: نوع من الموازين مثل أردب القمح أو الذرة

اللبشة: أى الحزمة ونقول (لبشة قصب)

الويبة: نوع من الموازين (ويبة البامية)

حفنة: ما يوضع فى الكف من الحبوب

سُباط: ما يتدلى من الأشجار مثل النخل أو الموز

شكوريا: نبات مثل الفجل والجرجير

شرش: رابطة أو حزمة مثل (شرش جزر)

سنط: شجرة السنط

طَب: وقع مثل (طَب مات) أى وقع ميتًا و (طب الميزان) أى سقط مكملاً للوزن.

فرفر: تأرجح

مقطف: وعاء من سعف النخيل يستخدم لحمل الأشياء

غَلَق: نوع آخر من الأوعية

برسيم: نبات معروف لأكل الحيوان

قويق: حيوان خرافى مخيف، ونقول (أم قويق) على المرأة غير المرغوب فيها وخاصة التى تتدخل فى شئون الغير.

ترباس: متآمر وخسيس

كحك: دائرة من العجين منقوشة على شكل قرص الشمس كانت تقدم فى المناسبات والأعياد المصرية وحتى الآن.

طَبلية: منضدة قصيرة توضع على الأرض، وقد انتقلت عن طريق اليونان إلى معظم لغات العالم (table) بالإنجليزية.

حس: مغنى، وتعنى الآن صوت المغنى فنقول (حسه حلو) أى صوته حسن

زُنط: جاكيت

صا: جهة أو ناحية مثل (صا الحجر)
مَو: موت، فنقول (جاك مَو) كدعاء بالموت على الآخر
الكرته: النفاية، فنقول (لم الكرته) أى جمع الزبالة
جمجوم: اسم علم بمعنى قوى
بيومى: اسم علم بمعنى نهرى أو بحرى
بيشوى: اسم علم بمعنى سام أو مرتفع
بِشاى: اسم علم بمعنى حظ أو بخت
شِنودَة: اسم علم بمعنى إشراق الآلهة
بِسادة: اسم علم بمعنى نور
شبرا: كفر أو ناحية
مِيت: طريق مثل (ميت يزيد وميت أبو الكوم)
شبرامَنت: الكفر أو الناحية الغربية
شبراديس: الكفر أو الناحية الجنوبية
بنها: عسل، ويقال بنها العسل
دمنهور: وأصلها دى/مِن / حُور، أى مدينة الملك حُور
هبهبة: عصبية
فَط: لجأ أو قفز إلى مكان
وَحوَح: تألم
زَفزَف: احترق
شرشَح: أى شتم، ونقول عن المرأة سليطة اللسان (شرشوحة)
يا / باى: باى بمعنى غُراب، ونقول يا باى فى لحظات الغضب بمعنى يا غُراب

بَعبَع: أى انفجر

يبوج: يتمرد

حَمحَم: أى دار (حول شىء ما)

٢ – الحصاد والشهور المصرية فى أمثالنا الشعبية:

لا حرث ولا بذر ولا حصاد بغير الشهور المصرية، وهى– فى حياة الفلاّح– الميقات الدقيق على امتداد الفصول والأعوام، ولم يضع المصرى القديم هذه الشهور اعتباطاً، بل نجد أن لمسمياتها دلالات معينة، فشهر أمشير يُشتَق من أحد عفاريت الزوابع، وعلى هذا الغرار نسج المصرى البسيط المعاصر هذه الشهور فى أمثال تعطى لكل شهر دلالة لا تختلف كثيرًا عن دلالات الأجداد، وهنا نتناول الشهور المصرية التى ينظم عليها المصرى أعماله الزراعية، وكيف عبر عنها فى الأمثال الشعبية.

١ – توت (سبتمبر – أكتوبر)

يقول المصرى البسيط على شهر توت أول شهور السنة المصرية (توت رى.. ولا فوت) أى لا تفوت الرى ولا بد أن تقوم به، وكما تغنى المصرى القديم بالطيور المائية فى هذا الشهر، يضرب بسطاء المصريين المحدثين الأمثال ويقولون: «إن زعقت الكركية.. إرمى الحب وعلىّ»

٢ – بابة (أكتوبر – نوفمبر)

يقول المصرى عن هذا الشهر الذى يناسب زراعة المحاصيل (زرع بابه.. غلب النهابة) ويقول أيضًا إحساسًا ببرودة الجو (بابه

خش وقفل البوابة) كناية عن مستهل الخريف والشتاء.

٣ - هاتور (نوفمبر - ديسمبر)

شهر هاتور هو أنسب الشهور لبذر البذور والحبوب فيقال: «هاتور أبو الذهب المنثور» أى بذار القمح، ويقال: «زرع هاتور.. خلَّى الأرض تبور» فهاتور ليس شهر زرع بل شهر بذر، وهنا يقول المثل لا تزرع فى هاتور ولكن اكتف ببذر البذور حتى تنضج فى فصل الحصاد.

٤ - كيهك (ديسمبر - يناير)

الشهور السابقة خصت الرى والزراعة، أما حساب الوقت وقصر وطول النهار فيُقال عن شهر كيهك الذى يقصر فيه النهار: «كيهك صباحك مساك تشيل إيدك من فطورك تحطها فى عشاك»

٥ - طوبة (يناير - فبراير)

ويقال عن هذا الشهر الذى يشتد فيه البرد «طوبة تخلى الصبية جلدة، والعجوزة كركوبة» ويقال أيضاً (طوبه فيه البرد والأعجوبة) ويقال (الاسم لطوبة، والفعل لأمشير)

٦ - أمشير (فبراير - مارس)

يقول المصرى البسيط عن شهر أمشير «بكرة ييجى أمشير، والصغير يحصل الكبير» حيث تنمو فيه المحاصيل سريعًا، أما عن زعابيب أمشير، فيقول المثل (أمشير أبو الزعابيب الكتير)، (أمشير يخبط يلبط، فيه روايح من روايح الصيف) ويقال: «أمشير يقول للقمح سير سير خَلِّى الصُغير يحصل الطويل».

٧ - برمهات (مارس - أبريل)

برمـهات هو بداية فصل الحصاد الذى تنضج فيـه المحاصيل فيقال: «برمهات.. روح الغيط وهات» وفى منطوق آخر (برمهات فتش من الغيط وهات من كل الخيرات)

٨ - برمودة (أبريل - مايو)

يبدأ حصاد القمح والشعير فى شهر برمودة، ويتم فيه الدراس بدق السنابل وطحنها، فيقول المثل: «برمودة.. دق بالعمودة»

٩ - بشنس (مايو - يونيه)

يكون قد تم الحصاد نهائياً فى هذا الشهر، فيقال عنه: «بشنس.. يكنس الغيط كنس»

١٠ - بؤونة (يونيه - يوليو)

يقول المثل: «بؤونة الحجر ينشف الشجر» وأصل الكلمة (أونة) ومعناها الحجر، و وضع المصرى الحديث الباء أداة للتعريف، ويقول بؤونة الحجر كأنه يقول الكلمة وترجمتها إلى العربية مثلما يقول المصرى بنها العسل، فكلمة بنها تعنى العسل، وإن كان اسم الشهر فى واقع الأمر إنما يرتد إلى عيد كان يحتفل به قديمًا فى الوادى الغربى من الأقصر.

١١ - أبيب (يوليو - أغسطس)

ويقال عن شهر أبيب الذى هو أول شهور الفيضان: «أبيب تسمع للميه دبيب» ولأنه فى هذا الشهر تنضج الفواكه ويقال «أبيب طباخ العنب والزبيب، وأبيب أبو اللهاليب»

١٢ - مسرى (أغسطس - سبتمبر)

وفى مسرى يرتفع الفيضان أكثر فيقال: «مسرى.. تجرى فيه كل

ترعة عسرة» ويقال: «مسرى.. يفك الأرض العسرة» وما زال هذا الشهر (دميرة) وهو اللفظ القبطى.

هل بعد ذلك لم يزل هناك من يعتقد أن المصرى يريد أن يحتفل بالربيع ؟ أم أن مسألة الفصول والشهور لديه ذات وظيفة مرتبطة بطبيعته الزراعية، هذه الوظيفة التى جعلته يحافظ على الاحتفال بعيد الحصاد على مر الزمان رغم مرور الاستعمار والغزو عليه ورغم تغيير لغته وديانته أكثر من مرة، إلا أنه لم يغير عاداته ولا تقاليده لأنه لو ابتعد عنها لما كان مصرياً. لذلك نجده يقول: «من فات قديمه تاه» بل إن أجداده المصريين القدماء كانوا يقولون ما قاله تحتمس الثالث لوزيره (رخ مى رع) من نيف وثلاثين قرناً من الزمان (حكيم من يستمع إلى قول الأسلاف الأولين) وهذا ما جعل هيرودوت يكتب قائلاً: إن المصريين ليتمسكون بعاداتهم الوطنية ولا ينتحلون شيئاً من خارج بلادهم، إذ هم على غير استعداد لاتباع عادات الإغريق، ولا هم بعامة يرحبون بلغة أى بلد آخر.

فالمصرى لا يعرف الربيع حتى فى أمثاله: لأنه لا يعترف به، فيقول: «برد الصيف ولا حد السيف» ومن هنا يتضح جلياً أن احتفال المصرى بشم النسيم هو احتفال بأحد فصول الزراعة المصرية وهو فصل الحصاد الذى يضرب به وبشهوره الأمثال، ويتغنى له وللأرض والنيل وجميع محاصيله، وهذا ما جعلنى أضحك عندما يأتى الاحتفال بعيد الربيع، فقد كنت أشارك فى إعداد برنامج الفن الشعبى بالقناة الأولى وأرى القائمين على البرنامج و هم يجبرون الفنان الشعبى المحترف على أن يرتجل ويغنى للربيع ويخرج

كلمات مكسرة وكأنه سيغنى بلغة أجنبية، وعندما طلب منى إبداء الرأى قلت إن المصرى لم يغن للربيع وإنكم تنفخون فى قربة مقطوعة، فسمينا الكلمة شم النسيم وتحدثنا عن الحصاد، وقمت بشرح تفصيلى لهذه الاحتفالية، فارتاح الفنان الشعبى واستطاع أن يغنى بطلاقة.

فالمصرى لم يعرف الربيع ولم يغن له، بل عرف شم النسيم الذى هو فصل الحصاد، وقد غنى الفنانون للنعناع والفراولة وأغانى الساقية والشادوف وانتهت الحلقة وخرجت من الأستوديو فوجدت جميع العاملين يلقون علىّ حزمًا من الأسئلة يريدون مزيداً من المعلومات، ولكن هذه حلقة فى وسط ركام من البرامج!.

الفصل الثامن
شم النسيم فى محافظات مصر

رغم التشابه بين محافظات مصر فى الاحتفال بعيد شم النسيم، إلا أن هناك اختلافات فى الكثير من الطقوس والعادات، فالتشابه يكون فى الخروج إلى الحدائق والحقول والمتنزهات صباح يوم شم النسيم، وأكل البيض الملون والفسيخ والخس والملانة والبصل الأخضر، وفى اتخاذ قوارب فى النهر أو البحر والابتهاج والفرح والغناء واستخدام بعض الآلات الموسيقية البسيطة وخاصة الإيقاعية مثل الطبلة والدُّف والرق، بينما هناك أيضًا اختلافات كبيرة، فنجد فى مدن القناة ظاهرة حرق (اللنبى) الدمية يوم شم النسيم، وفى الشرقية نجد فى منيا القمح (الغنيمى وكوم حلين) طقس الموكية والقفز فوق حفرة النار. وفى قرية (الإخيوة) بمركز الحسينية يتم الاستعداد قبل يوم شم النسيم بعشرة أيام فى طقوس تشبه طقوس المولد الشعبى، وفى الواحات يعلق نبات الدميسة بجوار البصل الأخضر، وفى دمياط تصنع بيضة من الخشب وتلون بدقة، وسنتعرف أيضًا من خلال عرضنا لاحتفال شم النسيم فى القناة والشرقية والواحات على العديد من الظواهر منها التأثير الأجنبى الأوروبى والأفريقى فى مدن القناة، كما سنتعرض للمحاولات التى تتعرض لها هذه الطقوس ومحاولة الإدارة المحلية لإجهاضها،

وخاصة التى تستخدم فيها النار كغرض من أغراض التطهير، والاعتراض يأتى بحجة البيئة تارة، وتارة أخرى بحجة مواسير الغاز الطبيعى، وتذكرنا هذه المحاولات بما تم فى عصر المماليك عندما ألغوا طقوس الظرفاء فى احتفال شم النسيم، فقد كان الظرفاء يقومون برش الماء وضرب المارة بالبيض وتقديم بعض الإسكتشات الفنية منها فن الأدباتى الذى كانوا يقدمون فيه مربعات تهاجم المماليك وحكمهم، فقام المماليك بإلغاء الطقس وجرموه ولم يجرموه لرش المارة بالماء وضربهم بالبيض، ولكن نتيجة معارضة الظرفاء بالشعر الغنائى الذى يعرف باسم فن الأدباتية.

ويتناسب هذا أيضًا مع الدعوة الخبيثة حاليًا بعدم أكل الفسيخ لأنه يسبب حالات تسمم، ونرى الصحف فى يوم شم النسيم ملأى بالأخبار عن حالات التسمم والإسهال الشديد وخلافه، ومنها الصحيح بسبب غش التجار، ومنها الزائف (المفبرك) فليس العيب فى الفسيخ نفسه، ولكن العيب فى غش التجار وعدم استخدام أنواع جيدة من الأسماك، و فى عدم وضع السمك فى وعاء محكم حتى لا يدخله هواء من الخارج فيفسده، أى العيب فى طريقة التمليح غير الصحيحة، ولكن لأن المحدثين المتخصصين على الشاشة وعبر الأثير يداوون الجلد ويتركون العصب، فمن الأسهل أن نهاجم الفسيخ ونهاجم حرق اللنبى ونهاجم المموكية أى نهاجم الثقافة الوطنية المتمثلة فى العادات والتقاليد الشعبية بدلاً من أن نتكلم عن طريقة التمليح السليمة وعن استخدام مواد صديقة للبيئة واستعمالها فى حرق اللنبى وطقس المموكية .

وهذا فى الحقيقة يجعلنا نستشف أن هناك ثقافتين فى مصر، ثقافة وطنية شعبية محافظة على عاداتها وتقاليدها، وثقافة أخرى متعلمة تتغنى بخياشيم أجنبية ورافضة لجذورها، ونلاحظ أن الثقافة الأولى لا زال فلاحوها وبسطاؤها يستخدمون الشهور المصرية الشمسية القديمة ويضربون بها الأمثال التى ليست مجرد حكم، ولكنها أسلوب وطريقة حياة، ويستخدمون كلمات مصرية قديمة فى حيواتهم اليومية... هذا بالإضافة إلى الكثير من الطقوس مثل الموالد التى هى فى أغلبها أعياد مصرية قديمة، إطلاق ألفاظ على آل البيت مثل الحسين وإعطائه الصفات الآزورية فى فصل الرأس عن الجسد، تشبه الألفاظ التى كان يطلقها المصريون على آلهتهم، ومثل ألفاظ يا ست؛ للسيدة التى تحولت فى العصر العثمانى إلى أم العجائز وأم هاشم، بل إن كثيرًا من الاحتفالات المصرية القديمة التى يمارسها هؤلاء البسطاء فى حيواتهم اليومية، هى فى الحقيقة عمودهم الفقرى للحفاظ على الهوية الوطنية فى عالم يسعى إلى طمس هذه الهوية ليصبح عالمًا بلا هوية، فلذلك ندعو متعلمينا إلى عدم ازدراء المعتقدات الشعبية ونبذها؛ لأنه بنبذ هذه المعتقدات ينبذون وطنيتهم وتاريخهم الحضارى الطويل الذى ما زلنا نتباهى به أمام الأمم .

وهنا عندما نناقش احتفالات المحافظات المصرية بشم النسيم ينبعى علينا أن نتعرف على الملامح الطقسية المميزة لهذه المناطق.

أولاً: احتفالات اللنبى بمدن القناة، واحتفالات شم النسيم:

بدأ احتفال اللنبى فى مدن القناة فى مدينة بورسعيد، حيث ولدت بورسعيد ولادة ساخنة، وفى طلق واحد إذ صُهرت فى مرجل

(رحم) عملية إنشاء قناة السويس التى كانت تتعجلها القوى العالمية المحيطة بمصر والمهيمنة على الاقتصاد العالمى، والمتعجلة لعملية تمرير التجارة بين آسيا وأفريقيا، من الشمال إلى الجنوب، أى من أوروبا إلى آسيا، هذه القوى ضربت بالمعول المصرى أول فأس فى الشمال بالقرب من شاطئ البحر الأبيض المتوسط، ومن هذه النقطة أو البقعة أو الضربة انتقلت عملية حفر القناة حتى وصلت إلى الإسماعيلية و واصلت السير حتى السويس فأنجزت مسافة حوالى ١٧٢كم فى المرحلتين، وقد تحدت القوة المستغلة الجديدة الإمبرالية العالمية وبنوكها وشركاؤها وحلفاؤها وعملاؤها، كل القوى البشرية الممكنة لتحقيق هذا المشروع فى أقل وقت وأرخص تكاليف، وما أرخص الأيادى العاملة المصرية، وما يمكن أن يستعان به من سودانيين وأحباش وبدو وجميع الحلقات المتعلقة بمجرى النيل وسكان الدلتا وصحراء سيناء، فتكون مزيجًا سكانيا جديداً من هذا الخليط رغمًا عنها، وبسرعة مدهشة تحت وطأة سخونة الحدث وبسرعة فعلية وفائقة تكونت بورسعيد الجديدة من جماعة سكانية متجانسة تزيد على أصابع اليد الخمسة، فسرعان ما تناسلوا وتزاوجوا وتناكحوا وخرجت الشخصية البورسعيدية الجديدة مع استحالة أن يحدد فيها ملامح السوهاجى من الأثيوبى من الدمياطى والمنصورى والبدوى السيناوى، فكان الجميع فواعلية فقراء راضين بالعيش القليل والسخرة الجبارة، فهذا الامتزاج السكانى العجيب والساخن والممتزج بسبيكة جديدة من الثقافات واللهجات والعادات والتقاليد ولدت منه هذه السواحلية الحريفة، فهى ساحلية منزلاوية

وليست كبقية قرى المنزلة، فهى ريفية من شمال شرق الدلتا، وليست مثل الزرقا وكفر البطيخ، فهى بدوية لم يبق منها أثر مميز للبدو مثل المناخ وأستوم والبردويل، هذا التكوين السكانى الذى ابتكرته ظروف جبارة وقاسية وجد نفسه فى حالة مواجهة أو - بالأحرى - حالة صدام يومى مع خصومه و هم أجلاب شركة قناة السويس من سادة التحالف الغربى الإمبريالى ومن ثم خدامهم من عملاء مصريين فى صورة بهوات وبشوات ووجهاء قد جروا فى أذيالهم يونانيين وأرمن وشوام وسكان جذر البحر المتوسط، باختصار تكونت جبهتان سكانيتان متواجهتان فى جبهة عريضة طولها الشارع الذى يقسم بورسعيد إلى حيين (شارع محمد على)، هما الحى العربى فى الغرب والجنوب، والحى الغربى فى الشمال والشرق. وقد ظلت حالة التفاعل والمواجهة مستمرة طوال حياة هذه المدينة وحتى اليوم، فيسكن الأرستقراطيون والأجانب والخصوم الطبقيون فى الحى الإفرنجى، ويسكن الفواعلية والأسطوات والعاطلون فى الحى العربى، مواجهة بين ثقافتين، ثقافة حوض نهر النيل؛ السكان الأصليين لمصر من الجنوب الحبشى حتى الشمال المتوسطى، وبين الثقافة الوافدة الساكسونية والجرمانية والأرمنية والشامية المتغربة عن أصولها العربية لحساب الأجانب و لاسيما الفرنسيين.

نجحت الثقافة الوطنية الأولى فى خلق المزيج البورسعيدى فى مواجهة الثقافة الأجنبية، بينما ظلت الثقافة الوطنية متميزة الأجزاء ولم تنجح فى ابتداع مزيج متجانس، فبينما كان الأجانب يجتمعون ليلة السبت لكى يقيموا (باللو) أو حفلاً، لم ينجح هذا الباللّو فى

تذويب الثقافات الوافدة فى صيغة واحدة، وفى المقابل نجح الوطنيون من مصريين وأحباش وبدو فى إنتاج حفل آخر هو (الضمة) كما رفض الوطنيون أن يكونوا عبيداً، ففى الوقت الذى يطلق فيه الأجانب ألقاباً مثل (لورد، ميسييه أو مستر) تجمع الوطنيون خلف اللسان العربى أو اللسان المصرى الذى يطلق مجازاً على اللسان العربى، فقاد أبناء مصر قيادة التحالف العامل من قوى السخرة، فلذلك ظهرت شخصية أبى العربى أو السيد العربى أو سيد أبو عرب فى مواجهة السيد الأجنبى، وكان كثير من فتوات الحى العربى ينسخون أسماءهم الأصلية لحساب هذا اللقب الجديد، وكذلك كان الأجانب يلعبون ويمرحون فى نواد أجنبية فقامت الجماعة الوطنية بعمل النادى المصرى فى مقابل النوادى الأجنبية .

وفى الربيع كان الإسبان الذين يعملون مع الفرنسيين، عندما كان جزء من إسبانيا محتلاً من فرنسا، كان هؤلاء الإسبان يقيمون فى الربيع طقساً اسمه (لايس فايا) وهذا الطقس كان فى الأصل يقام فى مدينة فالنسيا أو بالنسيا بالإسبانية، وقد شاهد الوطنيون هذا الطقس لحرق الدمية (لايس فايا) فأخذوه وكان أول نصيب دمية تحرق هى دمية (ديليسبس) مؤسس الصراع الطبقى بين الوطنيين والأجانب، ورافع لواء السخرة، وتوالى الطقس بأخذ أشكال وأسماء أخرى لرموز القهر والاستعمار حتى عام ١٩١٩ عندما انفجر بركان الغضب خلال ثورة ١٩١٩ حيث كان لبورسعيد نصيب من هذا الغضب، خاصة وأن أهل بورسعيد لم تتوقف مناوشاتهم أبداً مع الجاليات الأجنبية وقوات الاحتلال، وقد شارك أهل بورسعيد فى

ثورة ١٩١٩ بالعديد من المظاهرات كان أكبرها وأقواها تلك المظاهرة التى طافت شوارع بورسعيد يوم ٣١ مارس ١٩١٩، فقد خرج سكان المدينة من الفَحَّامة والتجار والشباب فى ثورة شعبية، وتحركوا فى شارع محمد على الذى يفصل الحى العربى عن الحى الإفرنجى، فأصيب الإنجليز بالرعب وفتحوا النار على المتظاهرين خوفًا من اقتحام هذه الجموع الثائرة للحى الإفرنجى، حيث توجد به شركة قناة السويس وكل الشركات والبنوك والثروات الأوروبية. وقد سقط سبعة من الأبطال شهداء فى ذلك اليوم، وجرح تسعة آخرون، وقد أطلقت أسماء بعض الشهداء على بعض شوارع المدينة مثل شارع عبادى وهو طالب من شهداء مظاهرة ١٩١٩، ورغم أن اللورد اللنبى لم يكد يمضى على قدومه إلى مصر أسبوع واحد، إلا أنه كان من نصيبه دمية شم النسيم لهذا العام، والتصق به هذا الطقس حتى الآن؛ لأنه رمز للاستعمار وحاكم مصر من قبل الاحتلال، وقد قام الوطنيون بعمل الدمية على شكل ضابط إنجليزى له ملامح اللنبى، وعلقوها على صارٍ طويل وطافوا بها شوارع المدينة، ثم أحرقوها، وانتقل الغضب البورسعيدى ليشمل مدن القناة الأخرى، الإسماعيلية والسويس، بل امتد حتى دمياط، وأصبح الطقس يأخذ شكل الجُرسة، والجُرسة طقس شعبى معروف لدى المصريين ويأخذ أسماء كثيرة منها (النأورة والفضيحة والزفة) وكانت الجُرسة تقام للإعلان عن السارق وذلك بوضعه على حمار فى وضع مقلوب مع حلق شعره ووضع أجراس فى رقبة الحمار حتى تصنع صلصلة تلفت الأنظار إلى هذا السارق، ومن هنا جاء لفظ الجُرسة، وتمشيًا مع عادات

وممارسات المصريين جاءت جُرسة اللورد اللنبى فى صورة صياغات شعرية تندد به وتسخر منه.

الإعداد للنبى

يتم الإعداد لحرق دمية اللنبى قبل ليلة شم النسيم بأسبوع، فيقوم أهالى القناة من الشباب والأطفال والنساء بالمشاركة فى هذا الإعداد، وذلك من خلال تنفيذ دمية اللنبى، وتجمع أكبر كمية من الأقفاص الخشبية والقش وإطارات كاوتشوك السيارات المستهلكة والاحتفاظ بها للحظة الذروة، وهى لحظة حرق دمية اللنبى فجر يوم شم النسيم، ويتم تنفيذ هيكل الدمية على شكل إنسان، وذلك بإحضار ملابس قديمة (بنطلون وقميص) ويتم حشوها بالقش أو نشارة الخشب، ثم يتم حياكتها يدويًا، وتقوم كل مجموعة من الشباب على مستوى كل حى بتنفيذ هيكل دمية اللنبى على شكل الشخصية التى أحدثت لهم إحباطًا وقهرًا وظلمًا على مدار أحداث حياتها اليومية، وتنتهز هذه الجماعة مناسبة شم النسيم لتمثل هذه الشخصية من خلال اللنبى وتشكيلها بالدهانات وكتابة بعض الكلمات عليها والتى تدل وتعبر عن سخطهم واستيائهم منها.

وعند الانتهاء من تنفيذ الدمية وعرضها فى شوارع المدينة وتعليقها على شرفات وأسطح المنازل، بحيث تكون فى حيز رؤية العين من جمهور النظارة، يعتبر ذلك بمثابة تعبئة للمواطنين والجمهور وإعلامهم بموعد اقتراب ليلة شم النسيم والتى يتم فيها زفة وحرق دمية اللنبى فى كل عام. وهناك منافسة بين الأحياء حول أفضل دمية يتم تنفيذها معبرة عن الجماعة، وهذا التقييم لا يتم عن

طريق لجنة، وإنما عن طريق رد فعل الجمهور مباشرة، ومدى حديثهم وتعليقهم حول أفضل دمية للنبى.

زفة اللنبى

تخرج زفة اللنبى بعد أذان العصر وحتى غروب الشمس ليلة شم النسيم، وتنطلق هذه الزفة من جميع الأحياء وتتحرك فى الشوارع والحوارى، وتقوم كل مجموعة- سواء أكانت من الأطفال أم من الشباب- بزفة دمية اللنبى محمولاً على عربات الكارو، وأحياناً أُخرى محمولاً على الأكتاف مرددين بعض المقاطع الغنائية القديمة أثناء هذه الزفة، ويردد فرد من الجماعة مقطعًا من الأغنية وتردد وراءه الجماعة، ويصاحب هذا الغناء استخدام بعض الآلات الموسيقية مثل الطبلة والرق والطار وآلة السمسمية، ومن هذه المقاطع:

يا اللنبى يابن حلمبوحة
ومراتك عرة وشرشوحة
يا اللنبى يابن حلمبوحة
مين قالك تتجوز توحة
ابكى عليه وقولى
دا كان بيحب البورى
ابكى عليه و ولولى
دا كان بيحب الجمبرى
يا اللنبى يا وش النملة
مين قال لك تعمل دى العملة

يا اللنبى يا بن الخوجاية
مين قال لك تعملها حكاية
يا اللنبى يابن الأمبوحة
... أمك مليانة ملوحة
يا اللنبى يابن الأمبوحة
نفسك فى فسيخ ولاّ ملوحة
يا اللنبى يابن الأمبوحة
دى راسك عالحيط مدبوحة
ابكى عليه يا باكية
دا انحرق فى الراكية
ابكى عليه وبس
دا كان بيحب العدس
إخيه عليه
اللنبى بيه

وبعد غروب الشمس تعود الزفة إلى مكان بدئها، حيث يقام سامر يتضمن الرقص والغناء الذى يستمر حتى فجر يوم شم النسيم، و هى اللحظة التى يتم فيها حرق دمية اللنبى. أما عن شكل الزفة فى الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضى، فكانت شخصية دمية اللنبى الممثلة من قبل الجماعة الشعبية ترتدى الزى العسكرى لجندى الاحتلال الإنجليزى فى تلك الفترة، ويتم وضع الدمية وتثبيتها على حمار أثناء الزفة، وتسير أمامه و وراءه مجاميع من الشباب والرجال والأطفال، ويتم ترديد بعض الأغانى مع مصاحبة بعض الآلات

الموسيقية مثل الرانجو (آلة تشبه الإكسيليفون مصنوعة من الخشب) والكاريا والشخاشيخ وأيضًا المنجور (آلة مصنوعة من قماش مثبت عليه قرون أبقار) وبعض الدفوف والطبل، وكان يقوم بهذه الزفة شباب حى عرايشية العبيد (منشية الشهداء) بالإسماعيلية وبعض البرابرة فى السويس و هم جماعات من أصول أثيوبية ومن تشاد والصومال وجنوب السودان، المهم أنهم كانوا يعودون بالزفة إلى مكان بدئها بالحى عند غروب الشمس، ويتم وضع الدمية على أحد المقاعد ومواصلة الغناء على آلة السمسمية والآلات الأخرى السابق ذكرها حتى قدوم لحظة حرق الدمية عند مطلع فجر يوم شم النسيم. وكان هناك شكل آخر للزفة فى نفس الفترة الزمنية، و كان يقوم بها شباب حى العرب (المحطة الجديدة) بالإسماعيلية ومنطقة حوض الروض بالسويس وفى بعض المناطق ببورسعيد، وكانوا يحضرون خشبة النعش الذى يحملونه ويسيرون بالزفة بهذا الشكل مع الطبل مرددين (اللنبى مات يا رجالة.. والقمل والسيبان فى السيالة).

وهناك شكل ثالث للزفة فى نفس الفترة الزمنية - الأربعينيات والخمسينيات - فكانت هناك مجموعة من الشباب والأطفال يحملون دُمى اللنبى وبعض أصحاب الحرف الصغيرة كمبيض النحاس وصانعى الطرابيش والحدادين، ويتم مزاولة المهنة الخاصة بهم فى موكب يشبه رؤية رمضان، وهناك بعض الأشخاص يقومون بتلوين وجوههم والجزء العلوى للصدر ويمسكون العصىّ كحراب يحاكون فى ذلك الهنود الحمر بالرقص على الشخاشيخ والرنجو وبعض الدفوف والطبلة، وكانوا أحيانًا يرددون أثناء زفة اللنبى هذا المقطع

(اللنبى راح فين ... دا بيحلق عند الأسطى حسين) وكان هذا المقطع يتم ترديده عند وقوف زفة اللنبى أمام محل حلاق شعبى ويقولون مثلاً (والله دا كان بيحلق عند الأسطى مشمش) لإثارة السخرية من شخصية دمية اللنبى المُمَثَّلة وكذلك من شخصية الحلاق صاحب المحل الذى يمرون أمامه، وكان هذا يثير ضحك الجماعة، ويستمر سامر اللنبى حتى فجر يوم شم النسيم و هى اللحظة التى يتم فيها حرق دمية اللنبى.

ويحضر هذا السامر العائلات والأسر من أطفال وشباب ونساء، فينزلون إلى شوارع المدينة ويتحركون من سامر إلى سامر ومن شارع إلى شارع، وذلك من الساعة العاشرة مساءً من ليلة شم النسيم وحتى فجر يوم شم النسيم، وذلك لمشاهدة حرق دمية اللنبى والتى تبدأ من الواحدة صباح يوم شم النسيم حتى الخامسة فجراً، ويبدأ مشهد الحريق (ذروة الحدث) أمام جمهور من النظارة ويحضره المواطنون الذين يلتفون حول هذا المشهد؛ حيث يكون هناك مجموعة من الشباب الذين يتعاونون فى إحضار الأقفاص الخشبية المماثلة على قمة الهرم، وهناك أحد الشباب يقوم بسكب الكيروسين على الدمية، وآخر يعطى إشارة بدء الاشتعال (إشعال الحريق)الذى قد يصل ارتفاع لهيبه إلى ارتفاع ثلاثة طوابق، وأثناء ذلك يقوم الشباب بالدوران حول حريق اللنبى مرددين بعض المقاطع الغنائية القديمة والمستخدمة أثناء لحظة الحريق، ويردد فرد من الجماعة مقطعًا من الأغنية وتردد من ورائه الجماعة نفس المقطع، ويصاحب الغناء الآلات الموسيقية المذكورة، ومن هذه المقاطع الغنائية أثناء

لحظة الحريق (يا تربة يام بابين ... وديتى اللنبى فين) .

ويستمر هذا الحريق حتى صباح يوم شم النسيم، وعند انتهاء الحريق تنصرف الجماعة إلى منازلها، وهناك من يذهب إلى الحدائق العامة لكى يتنفس الهواء النقى، وتقوم الجماعة بإحضار تجهيزات مـائدة شم النسـيم من بيض ملون وفـسـيخ وخس ومـلانة وبصل أخضر، وبعض السوايسة يفضلون أكل الفسيخ مع الكشرى الأصفر (أرز + عـدس أصـفـر) أو يأكلونه بجـانب أرز بالدمـعـة (صلصة الطماطم) ليخفضوا من حدة الملح، وهناك أيضًا طبق الفسيخ المخلى وهو غالبًا ما يكون من سمك البورى البحرى أو سمك العنبر، ويتم إخلاء اللحم من الشوك تمامًا وتقطيع السمك إلى قطع صغيرة، ثم يضاف إليه زيت وطحينة وقلب الطماطم والخيار المخلى من القشرة و وضع قطع صغيرة من الفلفل الأخضر والشطة، ويتم تقليب هذا المزيج مع الليمون ويتم أكله فى ظهر يوم شم النسيم.

وفى مساء يوم شم النسيم يفضل بعض أفراد الجماعة الشعبية أكل مخلفات الذبائح من فشة وبنبار وطحال ومخ وكبدة، وتشتهر السويس أيضًا فى ذلك اليوم باستئجار الفلايك وعمل رحلات بحرية فى مناطق الأدبية والعين السخنة، ويستهلك أهالى القناة فى ذلك اليوم أكبر كمية من عقود الياسمين على مستوى الجمهورية- رغم أنها محافظات غير منتجة له- وأخيرًا فى الإسماعيلية أصبحوا يقيمون عيدًا للفراولة فى هذا اليوم وعمل كرنفال رائع لها.

ثانياً: شم النسيم بمحافظة الشرقية

١ - كوم حلين والغنيمى

تختلف احتفالات شم النسيم فى الشرقية من مكان إلى آخر، ففى كوم حلين وكفر الغنيمى مركز منيا القمح يقيمون احتفال المموكية. والحقيقة أن لفظ مموكية لفظ غير معروف، ولم نستطع التعرف عليه؛ إذ من الواضح أنه لفظ ضارب فى القدم. فعند سؤالنا إبراهيم السيد أبو ريشة من أهالى الغنيمى ٦٨ سنة قال: إحنا طلعنا لقينا اسمه كده، وكان جواب بقية الأهالى كلمة واحدة (معرفش)، وبالبحث فى مركز الحضارة بالشرقية والاستعانة بعدد من الأساتذة المتخصصين لم نتوصل الى إجابة. والمموكية عبارة عن حفرة يتم ملؤها بالقش الذى تشتعل فيه النار، ويتم القفز من عليه فجر يوم شم النسيم، حيث يخزن القش قبل شم النسيم بفترة طويلة، كما يتم تخزين الحطب وكل المخلفات الزراعية الصالحة للاشتعال حتى يأتى اليوم المنتظر.

و فى ظهر يوم الأحد (عيد القيامة) يمسك الشباب الفأس الحجارى، ويقومون بعمل حفرة مناسبة، وتقوم النساء بجمع التراب فى مقاطف حتى تعاد للحفرة مرة أخرى بعد الاحتفال، كُل شيء هنا يتم بنظام ودقة بالغة، يقوم الشباب برفع أى أسلاك كهربائية إلى المسافة التى لا يصل إليها الحريق وتدخل جميع البهائم والحيوانات إلى حظائرها، وعند انتهاء الشباب من الحفر ينزل شاب واحد ويقوم الجميع بمناولته الحطب والقش، ويقوم الشاب بوضع الحطب والقش داخل الحفرة وكأنه يغزل ثوباً من القماش بحيث تحمل المواد الأكثر

مثل الحطب وفروع الشجر الجافة وتوضع فى أسفل الحفرة ويوضع القش فى الأعلى.

يعود الجميع إلى المنازل ما عدا عدد قليل يقف عند الحفرة حتى يمنع الغرباء من المرور خوفًا من أن يقعوا فيها، أو حتى لا يقوم شباب شارع آخر بالسطو على ما قاموا بتخزينه فترة طويلة من حطب و قش، وعند الغروب تشعل كلوبات القرية وبجلس بجوارها كبار السن فوق الأسطح ليشاهدوا الاحتفال، ويبدأ الشباب فى إشعال الحريق ويقومون بالقفز أولاً، ويكون الحريق عاليًا جداً، وعندما تصبح النار متوسطة يقفز الفتيان ويغنون: خدى براغيتك وهاتى شلاليتك، ولم يرد سوى هذا المقطع طول الاحتفال وكأنه تميمة سحرية، وهذا المقطع الغنائى يعنى أنه رغم قسوة النار التى تشبه ضرب الشلوت فإنها ستخلصهم من البراغيث التى تتكاثر فى هذا الفصل، وأن التخلص منها فى حاجة إلى هذه التضحية بالقفز فوق النيران، وعند انخفاض النيران يبدأ دور الأطفال فى القفز بمراقبة الكبار، ويردد الأطفال نفس المقطع الغنائى و هم يقفزون، وتفرح كل أم بقفز ابنها وتشجعه، الجميع هنا تعبوا واستمتعوا أيضًا وأوشك الاحتفال على الانتهاء، تبدأ النساء فى إعادة التراب إلى الحفرة ويرش الماء فوق التراب ويعود كل شىء إلى ما كان عليه.

يذهب الجميع إلى المنازل، كبار السن ينزلون من فوق الأسطح والأطفال والنساء والشباب يعودون وتبدأ عملية الاستحمام، حالة من التنظيف غير عادية يستخدم فيها الحجر الأسود لدعك القدم و ليفة جديدة تستخدم لأول مرة وماء ساخن، الجميع فى حالة نظافة

ويقنعون الأطفال بالنظافة وإلا تم سحبهم و هم نائمون إلى حفرة المموكية ويتم وضعهم فى النار، فيخضع الأطفال ويستحمون ويلبسون الملابس الجديدة ويتم وضع الكحل فى العيون وتترك النوافذ مفتوحة حتى الصباح، ويتركون الفرش فوق الأسطح، ليستقبل الدخان فى المساء والشمس فى الصباح. وينام الجميع فى غرفة واحدة حيث يكون عدد الفرش المستخدم قليلاً، فتبدأ الأمهات بتعليق البصل الأخضر وتقوم بسلق البيض الذى يتم تناوله فى الصباح.

يستيقظ الجميع يتناولون البيض المسلوق فى مرح، وطبق من المهلبية صُنع خصيصًا لاستقبال هذا اليوم، يخرج الجميع لساحة سيدى الغنيمى حيث المراجيح وبيع الشخاليل وكأنه احتفال بمولد أو سوق عيد كبير، ويتم أخذ العيدية فى هذا اليوم وكأنه عيد، نعم عيد عاش فى وجدان الجماعة ولم يزل حتى الآن. يمرح الجميع هنا بمشاهدة السيرك والألعاب الترفيهية، ثم يعودون إلى المنازل لتصحبهم الأمهات والآباء إلى الحقول، هناك يتم الغذاء من فسيخ وبصل أخضر وملانة وخس، وهناك من يذهب إلى البحر (بحر مويس) أحد فروع النيل الكبيرة، ويأخذون القوارب ويقضون يومهم فى هذه الرحلة الجميلة التى تشبه ما كتب فى البرديات المصرية القديمة عن عيد القوارب الذى كان يقام بالشرقية، وقبل الغروب يذهب الجميع وينامون فى استرخاء تام، نومًا عميقًا بدون براغيث وحشرات الصيف، كل شىء هنا عاد إلى طبيعته، عاد الفرش إلى البيت فى قمة النظافة، ينام الجميع فيما عدا الأب والأم اللذين

يضعان الخطة المالية على طريقتهما وهما يحتسيان الشاى، فاقتصاد الأسرة يتم تخطيطه فى هذا اليوم، ولِمَ لا والمحصول قد نضج وأقبل على البيع.

ثانيًا احتفال شم النسيم فى الإخيوة:

قرية (الإخيوة) من القرى الكبيرة بمركز الحسينية، وتضم فى زمامها العديد من القرى الأخرى فى المنطقة، تحتوى على مساحات كبيرة من الأراضى المزروعة بالفواكه والموالح وأشجار المانجو، كان دليلى إليها المخرج التليفزيونى (نزار مغاورى) أحد أبناء القرية، حيث تحتفل بهذا اليوم احتفالاً خاصًا قد لا تجده حتى فى العيدين الصغير والكبير، يبدأ الاستعداد لهذا اليوم قبل عشرة أيام أو أسبوعين، حيث تتحول ساحات البلدة إلى سوق كبير يأتى إليه باعة الحلوى والحمص والفسيخ والرنجة والسمك المملح وأصحاب الألعاب والحيل، فينصب بها سيرك كبير وتنصب المراجيح فى أكثر من مكان، ويستعد أهالى القرية لليوم كأنه عيد غير تقليدى، عيد استثنائى أو مولد كبير، تنظف البيوت جيدًا قبل يوم شم النسيم (يوم الأحد) ويتم ارتداء الملابس النظيفة الجديدة التى أُعِدت لهذه المناسبة، ثم يبدأ سلق البيض ويقوم الأطفال بتلوينه ليلة شم النسيم فى فرح ومرح ظاهر، ويستخدمون طريقة عجيبة فى تلوين البيض، يقومون بسلقه مع بعض أوراق البصل الجاف لتعطيه لونًا بُنيًا جميلاً، ويستخدم الأطفال أقلام الألوان لرسم بعض الرسومات على البيض، ويجهز البصل الأخضر والرنجة والفسيخ استعداداً للصباح.

يستيقظ الجميع فى الصباح الباكر ليتناولوا وجبة الإفطار من البيض الملون والبصل الأخضر، ثم يطلب الأطفال العيدية كى يلحقوا باكراً بالعيد ويركبوا المراجيح ويشاهدوا الألعاب السحرية الكثيرة، الفتاة التى تطير، والتنويم المغنطيسى، ومصارع الأسود ولعب البمب وغيرها، ثم تبدأ الوفود القادمة من القرى المجاورة بالمركز ليصبح أكبر تجمع بشرى متاح فى المكان، يوم غير عادى، لا يكاد المرء يجد فيه موطئًا لقدم، حركة تسوق غير عادية على المستوى التجارى، كل شئ موجود فى هذا اليوم، فلا عودة إلى المنزل بعد تناول وجبة الإفطار، حيث يذهب أفراد العائلة إلى التمتع بكل أصناف البهجة المتاحة، وتجد العائلات والأسر قد احتلت أماكن محددة فى الحدائق أو «الجناين» كما يطلقون عليها، والبعض يذهب إلى الحقول المتطرفة بعيداً عن الزحام الشديد، وعلى المستوى الفنى الشعبى تجد العديد من الشوادر الفنية التى تقدم عروضًا راقصة للغجر وفقرات فنية غنائية بالمساء، يلعب فيها الراوى الشعبى دوراً كبيراً، فنسمع الموال على (فرقة بلدى) بها أرغول وكولة ودفوف ومزمار ... إلخ، هذا الاحتفال الفنى يمتد إلى يومين أو ثلاثة قبل يوم شم النسيم حتى ثانى أيام شم النسيم، إنها أيام لا راحة فيها فى أية بقعة من أرض القرية، ومع صباح اليوم الثالث ينفضّ المولد تمامًا، يحمل أصحاب المسارح مسارحهم فوق السيارات، ويبدأ أهالى القرى المجاورة فى الرحيل إلى منازلهم، وعند ظهر هذا اليوم يكون السوق قد فُضَّ تمامًا وعاد الهدوء إلى القرية.

يبدو أن هذا الاحتفال له جذور قديمة جداً غير معروفة حتى الآن،

وإلا ما السر فى تمسك أهل هذه القرية- دون غيرها- بهذا الاحتفال على هذا النحو ؟ صحيح أن هناك حالة رواج اقتصادى كبيرة تنتاب القرية هذه الأيام مع وفود أبناء القرى المجاورة للتمتع والشراء، ولكن معظم التجار وأصحاب الملاهى ليسوا من أهل القرية!، فالواضح أنه مولد شعبى خالص لا يرتبط بالمسحة الدينية التى تقام من أجلها الموالد، وكما قلنا: فإن هذا السوق لا يقام فى الأعياد الدينية (الفطر والأضحى). فى الحقيقة أن رصد مظاهر الاحتفال وحدها لا تكفى للتأصيل والتنظير.

والواقع أن احتفالات الشرقية- على وجه الخصوص- فى حاجة إلى النظر إليها، إذ يبدو أن هناك انقطاعًا بين هذه الاحتفالات وجذورها الحقيقية، وهو ما قام به المصريون القدماء أنفسهم من محو معظم آثار الشرقية؛ لأنها كانت مرتبطة بآثار الهكسوس الذين أقاموا فى هذه المنطقة ما لا يقل عن أربعمائة سنة، ورغم المحو الأثرى، إلا أن ثمة بقايا نلمحها فى هذه (الطاقية الشرقاوية الطويلة) وربما كانت هذه الاحتفالات موجودة قبل الهكسوس، ولكنهم لم يمنعوها وسجلوا عنها، وتم محو هذه التسجيلات الحفرية ضمن ما تم محوه من قبل المصريين، لأن الهكسوس كانوا مصدر عداء بصفتهم غزاة ومحتلين، فكل هذه التساؤلات قد تجد إجابة فى الغد القريب لو ظهرت اكتشافات أثرية جديدة، أو تظل مجرد تساؤلات.

ثالثًا: شم النسيم فى دمياط:

شم النسيم فى دمياط متميز جدًا لأنه يجمع بين احتفالات مدن القناة والاحتفالات الريفية والاحتفالات النيلية، ويبدأ الاحتفال قبل

يوم شم النسيم بشهر تقريبًا، يجمع الشباب بقايا مخلفات ورش النجارة ويخزنونها لليوم الموعود، ويقومون بتصنيع بيض من الخشب حتى يلعبوا اللعبة المصرية القديمة التى كان يصنع فيها بيضة من الحجر يضربونها ببيضة حقيقية فتكسر فيأخذونها من صاحبها، المهم أن الشباب يتفنن فى تصنيع البيضة الخشبية ويلونها بالمواد الخاصة بدهانات الموبيليا من الفونيا وخلافه، فتصبح بيضة فى غاية الجمال، ولا يستطيع أحد أن يفرقها عن البيضة الحقيقية، بل ربما يقتنع من يشاهدها ويشاهد بيضة حقيقية أن البيضة الحقيقية هى المقلدة، ويبدأ تجار الأسماك فى تجهيز الفسيخ والسردين الذى يصدر لمعظم محافظات مصر، أما الأسر فى البيوت فتفضل التمليح والتصنيع لنفسها، فيكاد لا يكون هناك بيت فى دمياط لا يستطيع تصنيع وتمليح الفسيخ والسردين النيلى الدسم، والذى لا يوجد له مثيل سوى فى رشيد، وتقوم الأسر بعمل الحلبة الخضراء وهى تأخذ فترة فى عملها قبل يوم شم النسيم، وأصحاب القوارب النيلية يستعدون بدهان السفن وتلوينها بألوان زاهية مثل اللون الليمونى والبرتقالى، ويبدأ المزارعون فى تنقية الملانة والبصل الأخضر والخس من أية شوائب، وتتعطل الورش عن العمل يوم الأحد ليكون يوم نظافة واستحمام فى كل البيوت ويرتدى الجميع الملابس البيضاء ويأكلون ذبائح من الطيور - غالبًا البط والإوز - وإن بدأ الذبح يقل فى السنوات الأخيرة لبعض الظروف الاقتصادية، و فى مساء الأحد يعلن الجميع عن حرق اللنبى، ويقدرون مسافة الحريق حتى لا تقترب من الأسلاك الكهربائية، ولا يستخدمون الكيروسين أو أية مواد

تساعد على الاشتعال، فكل شيء يتم بحرص و دقة وعناية، ويعلق اللنبى إما على قاعدة حديدية أو يعلق بحبل حتى يشاهد وهو يحترق من مسافة تبعد عن النار فى حدود ثلاثة أمتار ... يفتح السكان الأبواب والشبابيك لدخول الدخان وتطهير المنازل من الحشرات مثل الناموس والبراغيث التى تتكاثر فى هذا الفصل. وينتقل المشاهدون من احتفال لآخر وكأن هناك مسابقة لأحسن لنبى، ولكنها غير معلنة، وكل الجماهير حكم فى المسابقة، الجميع يرقص على إيقاع الطبول حتى يأتى الصباح فيخرجون للحقول والشواطئ النيلية لركوب القوارب، ويلعبون لعبة البيضة والحجر وألعاب التسلية مثل نط الحبل ونطة الإنجليز وغيرها .

وعند الظهر يعود الجميع إلى المنازل بعد أن تجهز الأمهات الفسيخ والسردين الذى يُخلى من الأشواك، ويوضع لحمه فقط فى طبق ويرش عليه كمية من الزيت والليمون، وأحيانًا يقطع عليه بعض من الخيار والطماطم، وينظف البصل الأخضر والخس والملانة تنظيفًا جيدًا ... يجلس الجميع لتناول الغذاء، ثم يتم التخلص من بقايا الفسيخ والشوك وخلافه و يرمى فى صندوق بعيد، ويقوم الجميع بغسل الأيدى بقشر الليمون الذى تم عصره على الفسيخ، ثم يتم الغسل بالماء والصابون، ويشرب الجميع الشاى أو عصير الليمون، ثم تبدأ تسلية كلامية بين أفراد الأسرة لمدة ساعة أو ساعتين يتم بعدها النوم لمدة مماثلة فى فترة القيلولة، ويستيقظ الجميع على شاى المغارب ليفكروا فى يوم عمل جديد.

فيوم شم النسيم فى دمياط له دلالات متعددة، أولها أنه يوم

للتخلص من كل ما هو قديم، وهو عيد اقتصادى لما تقوم به دمياط من تصدير فسيخ وسردين، يوم يبدأ بعده موسم التجهيز للأفراح فتزدهر معه صناعة الموبيليا، فكل الأرياف المصرية تكون قد بدأت فى بيع المحاصيل؛ مما يوفر سيولة للشراء وتجهيز الأبناء، فهذا اليوم هو الأمل وبشير الخير، فلذلك هو الراحة من كل عمل؛ لأن العمل سيبدأ بعده وستعرض البضاعة الراكدة وتتحول الورش إلى معارض زاهية، الكل يحصد نتاج عمله طوال العام، والصيادون يأخذون فترة راحة يستعدون فيها لترميم شباك الصيد واستخدام الفلايك (القوارب الصغيرة) فى موسم سياحى فى رحلات نيلية بين دمياط ورأس البر، ويبدأ المزارعون فى موسم الحصاد وجمع المحاصيل.. حياة منظمة جدًا يكون هذا اليوم هو محورها.

رابعًا: شم النسيم فى الواحات

يعرف عيد شم النسيم فى الواحات- وخاصة فى واحة باريس- بـ (اثنين البيض) ويبدأ الاستعداد فى يوم الأحد السابق على يوم شم النسيم بتجميع البيض من كل الأنحاء المجاورة والقيام بتلوينه مستخدمين لذلك نبات التفتة؛ وهو من فصيلة النعناع ويعطى البيضة لونًا أخضر، والكركديه لتلوين البيض باللون الأحمر، وقشر البصل لتلوين البيض باللون البنى الفاتح. كما تتميز الواحات بنبات يسمى العشار، يعلقونه على أبواب المنازل بجوار بصلة أو بصلتين، ويتسابق الأطفال فى إحضار النبات وتعليقه، ويستمر هذا النبات معلقاً على الأبواب عامًا كاملاً حتى يأتى شم النسيم القادم أو اثنين البيض كما يطلقون عليه. و هم يستخدمون العشار؛ لأنه نبات دائم

الخضرة طوال العام؛ مما يجعل سنتهم خضراء، أما البصل فهو طقس مصرى قديم مرتبط بطرد الأرواح الشريرة وجلب السعادة والشفاء للأطفال حسب الأساطير المصرية القديمة، وهى عادة موجودة فى كل المجتمعات المصرية وليست خاصة بسكان الواحات، و هم -- كباقى سكان مصر - يضعون بصلة تحت الوسادة أسفل رأس كل فرد فى البيت، وتكسر هذه البصلة وتشم، وهو ارتباط اعتقادى قديم جدًا أوضحنا الأسطورة الخاصة به بين سطور هذا الكتاب.

ولأن الواحات مجتمع محافظ، تخرج الأسر فى الصباح فتتجمع النساء فى ناحية، والرجال فى ناحية ولا يتم اختلاط.. أما الأطفال فهم الأكثر حُرية يتنقلون بين الرجال والنساء ويتمتعون بالخضرة فى الحدائق الجميلة، يتمتعون بهذا فى الواحات كباقى أنحاء مصر، يكون الفسيخ والسردين الوجبة الرئيسة، بالإضافة إلى البيض الملون، والجميل أيضًا هو أكل التوت الذى تباح أشجاره للجميع فلا يمنع صاحب شجرة التوت أحدًا من أخذه، فالتوت يُثمر وينضج فى هذا الفصل، فيكون أيضًا عاملاً مساعدًا على هضم الفسيخ والسردين.. فى نهاية اليوم يعود الجميع إلى المنازل مرهقين من المرح واللعب فينامون نومًا عميقًا.

على هامش المحافظات:

إنها رحلة طويلة بدأت معى منذ اهتمامى بالفن الشعبى، والبحث فى فكرة التواصل بين قدماء المصريين، وبسطاء الشعب المصرى المحدثين، فقد حرصت منذ سنوات على قضاء هذا اليوم خارج بيتى؛ كل عام فى بلد غير الأخرى، وكانت محصلة هذه السنوات التى

قضيتها متجولاً- كما ذكرت آنفاً- جملة من الملاحظات أُوجزُها فى الآتى:

كانت أولى ملاحظاتى، أن ثمة تشابهات واختلافات أيضًا بين كل محافظة وكل قرية داخل مصر، وقد خرجتُ من هذا برؤيةٍ مهمة، مؤداها أن الطقوس تتشابه أكثر كلما كان هناك بحر أو نهر أو ترعة؛ فالسكان الذين يعيشون فى الجانب الشرقى من البحر أو النهر، أقرانهم فى الجانب الآخر يمارسون نفس العادات، فالممر المائى يؤدى إلى التواصل، ويجعلك ترى بوضوح التقارب بين التقاليد، فنجد نفس أنواع الخبز ونفس طقوس الاحتفالات، بينما الصحراء تصنع نوعًا من الجفاء والاختلاف فى العادات والتقاليد، فى حين أننى لاحظت وجود تشابه أحسبه كبيراً، بين القاهرة والجيزة والقليوبية، ربما بحكم التجاور.

أما الإسكندرية، التى ربما تختلف عن المجموع فى استخدام أنواع من الأطعمة، مثل أم الخلول، التى يُفرغ ما بداخلها فى طبق، وتضاف إليه الطحينة والخل والليمون والشطة والكمون، وتسمى بالحباش، كما تكون معظم الاحتفالات على الشواطئ مع لعب كرة المضرب (الراكيت) من أشهر اللعبات، وبدء موسم تطيير الطيارات الورقية والبلاستيكية، كما يتفنن أهل الثغر- وخاصة الأرمن منهم- فى تصنيع الرنجة والسمك المدخن وغيرها بشكل ملفت للنظر، وقد انتشرت الرنجة الإسكندرانية فى جميع محافظات مصر خاصة لانخفاض أسعارها عن أنواع الفسيخ الجيد.

ولاحظت فى البحر الأحمر حيث سفاجا والقصير والغردقة، أن

١ سمك العنبر، وهو النوع الكبير من أسماك البربوني؛ والذى يعيش على أكل الجمبرى، هو سيد الموقف فى تصنيع الفسيخ، وهو أغلى من البورى ويتم تمليحه فى الرمال بطريقة الكمر والتغطية المحكمة؛ ويكون طعمه غاية فى اللذة .

ولاحظت فى السويس أن سمك السهلية هو المفضل لدى أهلها وهو نوع من فصيلة البورى البحرى صغير الحجم، وخاصة سهلية العنبك منه، وهو متواجد على القناة من ناحية الجناين فى كبريت، بالقرب من مجرى القناة الفرعونية القديمة التى كانت تربط النيل بالبحر الأحمر، وكذلك سهلية الحجر التى تعيش بجوار الشعب المرجانية، فهى- رغم صغر حجمها- تحتوى على كمية عالية من الدهون؛ تعطى طعمًا جيدًا عند تمليحها.

فى حين أننى لاحظت فى أسيوط وبعض المناطق فى الصعيد، أن الملوحة هى الأكلة الرئيسة فى شم النسيم، بل إن ماء التمليح نفسه يؤكل بالخبز الشمسى غليظ الحجم، ويكون فى هذا اليوم خبزًا طريًا، إذ يوضع فى ماء الملوحة فيمتص منها، ويتم أكله مع البصل، فيعدل النافوخ كما يقول بنو أسيوط ! وفى ذات الوقت لاحظت أن أسوان يوجد بها نوع من الفسيخ عالى الجودة

ونلحظ أن ثمة اختلافا بين البيئات حسب نوع المنتج المحلى، سواء أكان منتجًا زراعيًا أم سمكيًا، ولكن الملاحظ أيضاً أن المناطق القريبة من القاهرة هى وحدها التى تقوم بالتصدير؛ مثل رشيد ودمياط والسويس فيما يتعلق بالأسماك، ورغم أن أسماك البحر الأحمر وأسوان ذات قيمة وجودة عاليتين، وكذلك الملوحة الصعيدية،

إلا أن ظهورهم فى الأسواق قليل نسبيًا؛ ومرد ذلك لبعد المسافة بين هذه المناطق والقاهرة الكبرى؛ التى تضم ما يقرب من ثلث السكان، ولكن مع ذلك استطاعت أماكن بعيدة أن تنفذ إلى العاصمة بمنتوجات أخرى، مثل خس أخميم؛ لإمكانه العيش لفترة طويلة بعد حصاده، وهو الخس الذى يعرف المصريون فوائده؛ لاحتوائه على أعلى نسبة من فيتامين (هـ) باعتبار أن المأكولات التى لها علاقة بالخصوبة تلقى اهتمامًا عاليًا جدًا لدى المصريين، ولهذا العامل نجح خس أخميم فى أن ينفذ إلى كل مكان رغم استهلاك شركات الأدوية لكميات كبيرة منه، نظرًا لاحتوائه على فيتامين (هـ)، كما سبق وأشرنا، ناهيك عن تأكيد الأبحاث السويسرية لذلك بعد دراسات معملية، ولعل ذلك يفسر ربط قدماء المصريين بين الخس والمعبود (مين) وكيف أنهم أطلقوا اسمه على أخميم؛ لاكتشافهم هذا الأمر مبكرًا، قبل الشركات السويسرية بآلاف السنين !!.

كما نجد الملانة فى أرياف الدلتا تستخدم لنفس الغرض، فهناك علاقة كبيرة بين هذا الاحتفال والتكاثر، فكما هو موسم لتكاثر كل الكائنات، فهو موسم لتكاثر الإنسان، وإن كان الجنس لدى الإنسان غير مرتبط بموسم، إلا أن الحاجة إليه تزداد فى هذا الموسم، وكأن الإنسان يحاكى الطبيعة ويقلدها؛ لأنه فى النهاية كائن مثل بقية الكائنات ميزه العقل عنها.

الخاتمة

١ - شم النسيم هو الاحتفال الجمعى الذى يجمع كل المصريين، بمختلف عقائدهم وبيئاتهم وانتماءاتهم، فهو عيد ليس له علاقة بدين من الأديان، ورغم أنه ليس عيداً دينيًا فإنه لم يختفِ رغم اختفاء المعتقد به؛ لأنه عيد للحصاد، وعادة مستمرة وباقية يمارسها الجميع.

٢ - هو العيد الوحيد الذى ظل يمارس دون أن يلبس ثوبًا عقائديًا رغم بعض المحاولات لمنع الناس عن الاحتفال به.

٣ - إعطاء هذا العيد المصرى الصبغة العالمية جعلته ينال الرضا من الحكومات المتتالية وعدم التعرض له على مدى التاريخ، ويمثل عطلة رسمية ليس للمصريين فحسب، بل للكثير من سكان العالم.

٤ - لا بد من عدم الازدراء لبعض العادات الشعبية مثل أكل الفسيخ والبصل وخلافه، وكذلك حرق اللنبى وخاصة ما يتعرض له هذا الطقس من هجوم شرس، وقد حاول بعض المحافظين بمدن القناة إلغاء هذا الطقس غير مُبالين بالإرادة الشعبية التى تمارس الطقس فى الخفاء رغم قرار الإلغاء.

٥ - ينبغى أن تكون هناك توعية إعلامية لتعريف الناس بتاريخ هذا العيد وربطه بفكرة الحصاد مرة أُخرى، وأن تقدم أغان خاصة بالحصاد وتشجيع الإنتاج؛ لأنه المعنى الحقيقى لهذا العيد.

٦ -هذا البحث هو بداية لأبحاث أخرى يجب القيام بها فى مجالات متعددة، زراعية وطبية ودراسات إنسانية وشعبية، فلا بد من دراسة الطب المصرى القديم والعلاقة الطبية بين أكل الفسيخ وضربة الشمس، ومعرفة الفوائد الحقيقية للخس والملانة والبصل الأخضر وخلافه.

٧ - الاستغلال الإعلامى لليلة الرؤية الخاصة بهذا اليوم، وأن يُقام مهرجان عند الهرم يتم استغلاله سياحيًا، على أن يكون شم النسيم يوم ٢٥ برمهات (القبطى) فرمنهات الفرعونى بالتحديد حيث تنقسم ساعات الليل والنهار، وتقسم الشمس شطرى الهرم، فلو تم استغلال سياحى لهذه الفكرة ربما ننافس إسبانيا سياحيًا ويتسابق الإعلام العالمى لشراء حق نقل هذا الاحتفال.

٨ - يجب أن تفسح للشهور المصرية مساحة أكبر فى كتابتها بالنتائج السنوية والجرائد، وأن يوضع التاريخ المصرى بجانب الميلادى والهجرى فى سبورات الفصول المدرسية حتى يتعرف من هم فى أعمار التعليم أسرار الحرث والرى والزراعة.

٩ - أن يكون هناك اهتمام بالعامية المصرية وما تحمله من كلمات مصرية قديمة وقواعد نحوية وصوتية، لأنها الأساس لفهم الثقافة المصرية المعبرة عن الهوية.

١٠ - الاهتمام بإحياء أعياد مصرية قديمة مثل وفاء النيل والاحتفال بالنيروز المصرى (رأس السنة القبطية)

١١ - أن تهتم الأجهزة المعنية بدراسة الشعبيات بعمل بحث جماعى عن هذه الظاهرة فى محافظات مصر المختلفة.

قائمة المراجع

١ – وليم نظير، العادات المصرية بين الأمس واليوم، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، ١٩٦٧

٢ – شوقى عبد القوى حبيب، الاحتفالات الدينية فى الواحات (باريس والقصر)، سلسلة الدراسات الشعبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة.

٣ – جيمى فريزر، أدونيس أو تموز، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٧٩ م

٤ – محمد لطفى جمعة، مباحث فى الفولكلور، مكتبة الدراسات الشعبية ،القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، العدد ٣٤

٥ – عباس محمود العقاد، يوميات، الجزء الأول، دار المعارف ،القاهرة، ١٩٨١ م

٦ – سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، الجزء الثانى، الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٠ م

٧ – سيد صديق عبد الفتاح، أغرب الأعياد وأعجب الاحتفالات، دار الأمين، القاهرة ١٩٩٤ م

٨ – عصام ستاتى، السمسمية بين الواقع والأسطورة، الطبعة الثانية، مكتبة الدراسات الشعبية، العدد ٨١، الهيئة العامة لقصور الثقافة ،القاهرة ٢٠٠٣م

٩ – يحيي الخشاب، حكايات فارسية، سلسلة الألف كتاب، دار القلم، القاهرة، بدون تاريخ

١٠ – أحمد أمين، فيض الخاطر، جزء ٨، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٣٦ م

١١ – السيد شلبى، كلمات لها حكايات، دار الشعب، القاهرة، بدون تاريخ.

١٢ – أحمد أمين، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، تقديم ومراجعة محمد الجوهرى، وزارة الثقافة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٩ م

١٣ – إبراهيم أحمد شعلان، موسوعة المثال الشعبية المصرية، مكتبة الدراسات الأدبية، العدد ٩٤، دار المعارف ،القاهرة .

١٤ – فؤاد حسنين على، التوراة الهيروغليفية، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة بدون تاريخ.

١٥ – لويس بقطر، تأملات فى الأدب المصرى القديم، ، مكتبة الشباب، العدد ٢٨، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الأمل للطباعة والنشر، ١٩٩٥ م

١٦ – الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس، مطبعة حلمى، القاهرة ١٩٨٢ م

١٧ – جيمس فريزر، الغصن الذهبى، الجزء الأول، ترجم بإشراف د/ أحمد أبو زيد، سلسلة ذاكرة الكتابة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة يوليو ١٩٩٨ م.

١٨ – عبد الرحمن الرافعى، ثورة ١٩١٩، تاريخ مصر القومى (١٩١٤ – ١٩٢١)، الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٩ م.

١٩ – جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة، ترجمة أيمن سلامة وسيد توفيق، مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦ م.

٢٠ – أحمد رشدى صالح، الأدب الشعبى، الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٢ م.

٢١ – إدوار وليم لين، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، الجزء الثانى، ترجمة عدلى طاهر نور، سلسلة ذاكرة الكتابة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٨ م.

٢٢ – جاستون ماسبيرو، الأغانى الشعبية فى صعيد مصر، إعداد أحمد مرسى

ومحمود الهندى، مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠ م.
٢٣ – مارلين تادرس، الأقباط بين الأصولية والتحديث، تقديم أمين المهدى، الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٢ م.
٢٤ – حسين كفافى، المسيحية والإسلام فى مصر، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠١ م.
٢٥ – قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٨ م.
٢٦ – محرم كمال، الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء، الهيئة العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب، العدد ٣٠٣، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٨ م.
٢٧ – محمود الشرقاوى، رحلة مع ابن بطوطة من طنجة إلى الصين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٨ م.
٢٨ – جيمس هنرى برستيد، فجر الضمير، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨م.
٢٩ – عائشة صلاح الدين شكر، الاحتفال بشم النسيم دراسة ميدانية فى بورسعيد، رسالة ماجستير غير منشورة، المعهد العالى للفنون الشعبية.

دوريات:

١ – المقتطف، عدد ١ مايو، القاهرة ١٩٣٣.
٢ – مجلة التراث الشعبى العراقية، حديث عن عيد رأس السنة عند العراقيين القدامى، حوار محمد رجب السامرائى مع سهيل قاشا، عدد (١١، ١٢) بغداد ١٩٨٤
٣ –سيد كريم، فصول السنة المصرية القديمة، مجلة الهلال، القاهرة يناير ١٩٧٦.
٤ – المشرق، دراسة بعنوان (عادات الأنام فى رؤوس الأنام)، القاهرة سنة١٩١٦

صحف

١ – أحمد إبراهيم حلمى، شم النسيم بين جوهر العقيدة و روح المستقبل، الأهرام ١٦ أبريل ٢٠٠١ .

٢ –مرقص عزيز خليل، النيروز رأس السنة القبطية، الأهرام ١٢ سبتمبر ١٩٩٩م

٣ – نبيل عبد الملك، عيد النيروز لفظًا ومعنى، الأهرام، ١٣ سبتمبر ,١٩٩٨

٤ –سهير أحمد السكرى، شم النسيم إله الجمال والطفولة والأمومة الأهرام، ١٦ أبريل ٢٠٠١ م.

٥ –عبده مباشر، شم النسيم العيد والرمز، الأهرام، ٦ مايو ٢٠٠٢ م .

٦ –عبد المنعم إبراهيم الجميعى، عيد كل المصريين، الأهرام، ١٦ أبريل ٢٠٠١م.

٧ –نادية الملاخ، شم النسيم أقدم أعياد العالم، الأهرام، ٢٧ أبريل ٢٠٠٣ م .

الكاتب

عصام ستاتى

- باحث فى التراث المصرى واللغة المصرية القديمة .
- يعد المادة العلمية للكثير من البرامج الإذاعية والتليفزيونية، التى تهتم بالفن الشعبى، ومنها برنامج : «المداحون»، بالإذاعة المصرية .

*** من أهم كتبه :**

- السمسمية.. بين الواقع والأسطورة، الهيئة العامة لقصور الثقافة .

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يسلّم إرفاق أسطوانة (C.D) أو ديسك إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أو لم يطبع .

من إصدارات
مكتبة الدراسات الشعبية

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)

۰۱۰۵۸۰۲۹۷
درویش زعبرار